إبراهيم الكوني

عشب الليل

الى الاصدقاء في منتدى ليلاس
مع التحية



رواية

طبعة جديدة



إبراهيم الكوني

عُشْبُ الليْل

رِوايـــــة

طبعة جديدة



عُشبُ الليل

رِوايــــة

الطبعة الثانية

الناشر

دار الملتقى للطباعة والنشر

بيروت ـ لبنان ـ ص . ب : 136582

ليماسول ـ قبرص ـ ص . ب : 6527

«الأب يُحِبّ ـ ،

الأب الذي يملك سلطاناً على الكُلّ ـ

الأب يُحبّ فوق كل شيء،

أن يُخْضِع لمشيئة الحرف الصارم كل شيء».

هولدرلين

نشيد «باتموس»

«إذا لم يوجد الله، فإن كل شيء يُباح حتى الجريمة».

دستويفسكي

«الأخوة كارامازوف»

1

في فرارها الأوّل ذهبت للاحتماء ببنيان الحرم.

باتت ليلتها الأولى في دار القرابين، وأطعمتها العرّافة من مآكل النذور التي يجود بها الواويّون على الضريح بسخاء يفوق إنفاقهم على أنفسهم وعلى ذويهم. وفي صباح اليوم التالي أقبل أحد أقيان الجدّ وحاول أن يقنعها بالعودة. جالسها في الركن طويلاً، وحادثها همساً، وظلّ يتقرفص في الزاوية، ويهمهم بكلام مبهم حتى بعد أن انسحبت الفتاة، وتركته في عتمة البنيان وحيداً.

رجع القنّ فجاءت الأمّ.

جاءت مع حلول العتمة. تشدّ حول وجهها لحافاً شديد السواد. ترتدي ثوباً شديد السواد أيضاً، فلا يبدو من وجهها الخلاسي سوى مقلتين حزينتين.

ولكن سيماء الحُسن القديم، الصارم، تجلّت في القامة،

والمشية، واستواء القدّ. عبرت إلى دار الكاهنة، وجالستها على انفراد أمداً، ثم خرجت لتختلي بالفتاة عند موقد النار. في ضياء اللّهب تبدّى في عينيها، إلى جانب الحزن، وجع عميق.

حاورتها الليل كلّه. حاورتها بصوت مكتوم جُلَّ الوقت، ولكن الانفعال غلبها مراراً، فأفلت الصوت، وجاهرت بالعبارة المسموعة كثيراً.

في غلس الفجر تسللت عائدة. وراءها بمسافة سارت الفتاة.

2

بقاء الابنة في البيت لم يطل.

وجدتها عذراء المعبد تتكوّم في ركن من أركان الضريح، وترتجف كالمحمومة.

انحنت الكاهنة فوقها لتستفهم فندّ عن الصبيّة أنين. تحفّزت كذئبة، وهدّدت العرّافة بلسان وقح:

- إذا حاولت أن تعيديني فسوف أطوف وأقول للناس كل شيء!

تراجعت الكاهنة. انتصبت بالجوار. قالت بتسامح الكهنة:

- ليس فخراً أن تتباهى امرأة بقول ما لا يجب أن يُقال!

مضى صدرها النافر يعلو ويهوي بفتنة، فرجفت خصلات شعر فاحم، سخيّ، انسدلت على الصدر فناست مع أنفاسها الغاضبة كما تنوس أعشاب الرّتم عند هبوب الرياح. أعادت القول بنفس الوعيد:

- إذا حاولتِ أن تعيديني للبيت فسوف أطوف وأقول للناس كل شيء!

تحجّبت العرّافة بلحافها الكئيب. قالت بصبر من نصّبته الأقدار وليّاً على أمر الناموس:

- إذا خرج من فم الإنسان القول المعيب، فذلك عار يلحق بقائل الأقوال، لا بمن تسمّع وسمع الأقوال. فهل يليق أن تجازف الصبيّة بالشرف في سبيل أن ترضي شهوة وتُسمع الناس ما لا يجب أن يسمعه الناس؟

هزّت منكبيها استخفافاً، واتسعت حدقتا عينيها الكبيرتين مفتعلةً الدهش:

- الشرف؟ هل تتحدّث مولاتي عن الشرف؟

- هناك شرف أبعد من شرف الجسد. هناك شرف أكبر من الشرف. وصيانة اللسان من قول الجهل مفتاح في طريق الشرف الأنبل.

- لا أعرف عن أيّ شرف تتحدّث مولاتي، ولكنّني أعرف أن هذا كنز أضعته إلى الأبد، ولن يُكتب لي أن أهبه لقرين بعد اليوم. هل تدري مولاتي ما معنى أن تعجز الصبيّة عن تقديم القربان الوحيد الذي أودعته الحياة في يدها؟ ألا يُقال إنها تفقد الحياة بفقدانه؟ وحتى إذا نالت قريناً، فبمَ ستتباهى بينها وبين نفسها؟ أم أنّك تظنّين أن التباهي لا يكون إلا أمام قرينة أو قرين؟. أم. . أم أن مولاتي كان يمكن أن تكون كاهنة المعبد لو لم تقدّم الشرف قرباناً ففازت بلقب عذراء الأبد؟

غزت سيماء العرّافة مسحة شحوب، في العينين تألّق حزن فتّان. الحزن النبيل الذي لا يلوح إلاّ في عيون الزّهاد وأولئك الذين خُدعوا فضحّوا بحطام الدنيا ليكتشفوا أن الحياة ليست سوى هذا الحطام نفسه.

طافت ببصرها بعيداً، بعيداً. تساءلت بلفظ مهموس:

- هل عاد إليك ثانية؟

جاء جواب الفتاة حاسماً:

- لو لم يعد إليّ لما عدت إليك!

تنزّل الصمت. ازداد البُعد بُعداً في بصر الكاهنة، وتعلّقت الصبيّة بالبعد في مقلتي عذراء الأبد. ازداد السكون كثافة.

تمادى السكون فشمل أركان الواحة كلّها. سكون يماثل السكون النبيل، القديم، الذي فقده أهل «واو» منذ أن ركنوا للأرض، وابتنوا لأنفسهم مدينة أطلقوا عليها اسم «واو». السكون الذين كان للممسوسين سرّاً، ولأهل العزلة فردوساً، وللعرّافين وطن النبوءة. سارت عذراء الأبد وراء وعد النبوءة عندما تزلزل البنيان بالعويل، وتلوّت الفتاة على الأرض كأنّها لدغتها حيّة.

3

انطلقت.

أفلتت من يد العرّافة وانطلقت كجمل غلبته شهوة الموسم فأفلت من عِقال.

طافت حول الحَرَم مرّات، ثم سلكت الطريق المؤدّي إلى سوق الحدّادة. من هناك سلكت الدروب الضيقة، التي تخنقها جدران الحجارة من الجانبين، وتفضي إلى الأبنية المجاورة لوادي الرتم في الشرق. هناك انحرفت يميناً، وسارت وراء الجدران حتى بلغت فناء السوق الكبير المسمّى «سوق البضائع». في البدء لم يمشِ خلفها إلا حفنة من الصبيان الفضوليين. ولكن الخلق تكاثر في المسيرة التالية، ومضى العدد

يتضاعف حتى استحال زحاماً شبيهاً بزحام الجموع التي لا تشهد لها الواحة مثيلاً إلا في المناسبات الجليلة.

سارت عارية الرأس. وقيل فيما بعد إن لحافها سقط أثناء عراكها مع الكاهنة عند باب المعبد. وجاء في قول آخر أنها رمت باللحاف عمداً بعد تخلّصها من يد العذراء. وإذا كان الحمقى قد انشغلوا بالجدل حول اللحاف، فإن الخبثاء قفزوا إلى النتيجة، وكحّلوا العيون ببهاء الشعر الفاحم الغزير الذي لم يسبق لهم أن رأوه (كما اعترفوا فيما بعد) على رأس حسناء خلاسية. فبرغم جحوظ المقلتين، واحمرار العينين، وتناثر الزبد حول الشفتين، إلا أن المسّ لم يُفقد الصبيّة البهاء. وروى أولئك الذين عرفوها قبل ذلك اليوم، أن الجنون لم يزدها إلا حُسناً وفتنة.

كانت ماردة في الطول، مسبوكة الأطراف، مشدودة القدّ، صدرها متوّج بنهدين مستنفرين، في بشرتها المعتمة نعومة وجاذبية ولذّة لم يعرفها القوم في أبدان الخلاسيات. كأنّ ذلك اللون الكئيب الذي رآه أهل العشق سبباً منفراً في جمال الصبايا، هو الذي صار سرّ الملاحة، فأنست الفتنة الكثيرين بشاعة النداء الذي رددته الفتاة في مسيرتها، وكان لجنونها علّة، فأُخذ البعض بالبهاء، وعلّقوا على المنكر بأصوات مسموعة:

«الشيخ على حقّ. الجدّ على حقّ. لا يستطيع أن يقاوم هذه الفتنة إلا حجر!».

في ذلك الوقت استمرّ بلاغ الفتاة. كانت تلفظ الزبد، وتتلفّت حولها دون أن تستقرّ عينها على الجموع، تتلفّت بعينين غائبتين لتخبر القوم بالنبأ:

- نعم. لم يستحِ. لم يستحِ ولم يعجز رغم الزمان الذي وهبه لقب الجدّ. لم يستحِ فأتى مع الحفيدة مُنكراً، ولم يعجز لأنه لا يكف عن أكل تلك العشبة اللعينة التي لا يعرف سرّها سواه. فاسمعوا يا أهل واو! إذا لم تفعلوا شيئاً فسوف يقتلني في الليالي! فاسمعوا! اسمعوا يا أهل واو!

في البدء لم يفهم الناس. وعندما فهموا مع التكرار وعبارات الإيضاح، استنكر العقلاء، وضحك الدهماء، وبكى ضعاف النفوس، وأعلن الحكماء أن الأمر علامة بلاء.

تخلّف بعضٌ عن الركب. وتعثّر آخرون. وأصاب الدوار والغثيان الكثيرين. ويمّمَ عقلاء الحيطان وبدأوا يتقيأون.

استمرّ المسير وتعالى النداء.

تكرّر النداء الجسيم ففقد، بالتكرار، وقع البدء. تلقفه أهل الفضول، فردّدوه فيما بينهم، وتجاذبوه، وتندّروا به، وابتذلوه،

فضاع فيه الهول حتى أن امرأة (قيل إنها من بنات الأغراب) تقدّمت من الفتاة وسألت بلهجة غريبة:

ـ هل تقولين إن معمّراً في عمر جدّك ما زال قادراً على معاندة صبيّة مثلك؟

التفتت الفتاة إلى امرأة الأغراب. تراجع إيماء الغياب في المقلتين لوهلة. ازدادت حدقتاها اتساعاً قبل أن تقول:

ـ أستطيع أن أحتمل أقوى رجال الصحراء إلى الأبد، ولكني لا أستطيع أن أحتمل شيخاً أكل من تلك العشبة المشؤومة ساعة واحدة. أعرف أن المرأة لم تخلق امرأة إلا لكي تحتمل الرجل، إلا لكي تحتمل الرجال، كلّ الرجال، ولكن السرّ في العشبة.

أسرعت المرأة اللئيمة الخطو. جاورت الفتاة. تساءلت بإلحاح حقيقي:

ـ خبريني عن العشبة! ما لون العشبة؟ هل لها ساق طويلة؟ هل لها أوراق كأجنحة الجراد؟

تجاهلت الفتاة السؤال، وعادت تردّد البلاغ. ولكنها توقفت فجأة، وحدّقت في المرأة بفضول. توقّفت القافلة أيضاً. ازداد في عينيها إيماء الذهول. قالت:

ـ لا أعرف للعشبة لوناً ولا طولاً ولا شبهاً. عشبة تبدو ككل الأعشاب. ولكن لها مفعول الجنّ!

تحرّكت الفتاة فتحرّك الجمع. صاحت امرأة الأغراب وهي تحاول اللحاق بالفتاة:

ـ ألن يكون «آسيار» هو تلك العشبة؟ ألا يُقال إن «آسيار» نبتة الأسحار؟

في تلك الساعة فزّت من الزحام امرأة أخرى. انفصلت عن الجمع، وصاحت في وجه الصبيّة بغِلّ الوحوش:

ـ تِينَكِيرتْ! تِينَكِيرتْ! أَكْفَتْ تِينَكِيرتْ تِيوَسْواسْ دَغْ أَغَفْ(*).

توقفت الفتاة. التفتت إلى الجمع. ألقت نظرة شاملة. ثم فتّشت عن طعنة الاستفزاز وهي ترتجف. وقع بصرها على الخصم فارتجّ النهدان بزفرة موجعة، وارتعد الخدّ الأيسر رعدة خفيفة شبيهة برعدة جلد الجمل عندما يهمّ بطرد الذباب اللجوج. ضاقت عيناها الحمراوان، المجنونتان، قبل أن تنطلق بذلك اللسان الذي قُدّر له أن يصير رواية الأجيال:

ـ تينكيرت؟ تقولين تينكيرت لأنّك لم تنالي قرباً من الأب؟

(*) غانية! غانية! أحرقوا رأس الغانية بالنّار!

تقولين تينكيرت لأنك لم تنامي إلى جوار جدّ فحل؟

بحثت ببصرها عن النساء. صاحت بأعلى صوت:

ـ مَنْ منكنّ لا تشتهي مجاورة الأب؟ مَنْ منكنّ لا تحلم بامتلاك الأب؟

لحظتها اقتحمت العرّافة الجمع. كانت حافية القدمين، تلهث إعياءً، وجهها مبلل بخيوط العرق. صاحت بصوت ليس صوتها:

ـ أين الرجال؟ هل خلت «واو» من الرجال في يوم؟ أم أن الرجال ينتظرون من الزعيم أن ينهض من رقدته ليضع حدّاً للمنكر؟

عمّ الصمت.

لم يطل الصمت.

من أحد الأزقة خرج «أغوللّي» راكضاً. من الجمع انبثق البطل «آهلّوم». تقدّم البطل من جهة الجمع، وأقبل عليه «أغوللّي» من جهة الزقاق. طوّقا الفتاة من الجانبين. كانا يلهثان أيضاً.

تنقّلت الفتاة ببصرها بينهما، ثم حدجت العرّافة مستفهمة. تعاظم الصمت، وتمدّد في سكون الأبدية القديم الذي لا وجود

له إلا في أعماق الصحراء. همّت المسكونة أن تعود إلى النداء فوثب إليها «آهلّوم» بقفزة واحدة. احتضنها بين ذراعيه. وَلْوَلَت. ولولت بزعيق مميت، ففزّ «أغوللّي» وبدأ يحشو فمها بطرف ثوبه الفضفاض. حاولت التخلص من ذراعي البطل، فتبدّت، في محاولات الإفلات، كعصفور ضئيل يجاهد للتحرّر من شباك فخّ محكم. برطمت بفمها المحشو بكتّان الرداء، فصاح «أغوللّي»:

ـ هاتوا المسَد! هاتوا المسَد!

جاء الصبيان بقبضة المسد. تناول «أغوللّي» ألياف المسد المتوحش، وشرع يحشو بها فم المسكينة. برطمت مرّة أخرى بالكلام، فرأى الجمع كيف فزّت خيوط الدّم من الفم، ومضى النزيف يسيل ويغمر الشفتين.

4

عرفت فيه القبيلة مريداً للظلمات، وشاعراً يتغنّى بالسواد. وبرغم أن الرواة خلعوا عليه لقب الشاعر من باب التهكّم، إلا أن الكثيرين أثنوا على موهبته الشعرية، وقالوا إنه اكتشف جوانب خفيّة في لون العتمة استعصت على كل من سبقه من شعراء القبيلة. وفي حين لم يخفِ آخرون دهشتهم في أن

يحترف المرء السفساف، ويجهد نفسه للبحث عن معنى أمر تافه كظلمة الليل أو سواد البشرة، إلا أن فئة أخرى أكّدت أن الإنسان يستطيع أن يفلح في أيّ أمر، مهما صَغُر، إذا استطاع أن يجعله همّ يومه.

وتناقل هؤلاء أخباراً تقول إن عقلاء كثيرين أثنوا على أشعاره الغريبة، ووصفوها بالكنز الشحيح، وبتعبير آخر أكثر غموضاً هو: «خلعة الخفاء».

وكما في كلّ مرّة ترد فيها سيرة هذه المملكة على ألسنة الناس، فإن العقول لا بد أن تُستنفر، والأبدان تتحفّز، والألسن تتأهب للجدل. فقد عقّب الهواة على آراء «وان تيهاي(*)» (وهذا هو الاسم المستعار الذي أطلقته القبيلة على رسول الظلمات) في فتنة العتمة وبهاء اللون الأسود فقالوا إن من الجهل الجزم بأن المريد يعني الباديات في تغنّيه بحُسن الظلمات، ذلك أن الشعراء سلالة مفتونة بالاستعارة، ولا تتكلّم إلا إيماءً. وكلّ ما ردّده خصوم الرجل عن تعشّقه المعيب لهذا اللون الكريه (إلى حدّ أنّه لا يرتدي إلا ثياباً سوداء، ولا يخرج للتسكّع إلا ليلاً، ولا يعاشر من النساء إلا إماءه الزنجيات)،

(*) صاحب الظلمة. سليل الظلمة.

يمكن أن يُحشر ضمن حسد الإنسان لأخيه الإنسان، ولكن لا شأن له بتوق المريد إلى الجانب الآخر، الجانب المجهول الذي حثّ الناموس أمم الصحراء على طلبه، فجعل معنى الحياة في البحث عن معناه، وسمّته الأجيال خفاءً، ورأت أجيال تالية في الظلمات ستوره التي تحجبه عن الأنظار.

ولكن ما لبث أن هبّ هواة آخرون، حسب ما حدّث الرواة، وطعنوا في الخلط بين الخفاء والظلمة، وقالوا إن الناموس لم يعقد أي قران بين الخفاء والظلمات في أيّ نصّ من نصوصه المعروفة. أمّا إذا كان الأدعياء يريدون أن ينسبوا إلى الشرائع الجليلة آراء لم ترد في النصوص المتداولة متحجّجين بالوصايا الضائعة في الكتاب، فإن هذا برهان مشبوه لم يكونوا أوّل من لجأ إليه. لأن اللجوء إلى الوصايا المفقودة زعْمٌ اعتادته القبائل من المعاندين الذين يحتكمون إلى هذه الحيلة إذا عجزوا وامتنع عنهم الدليل.

ويُروى أن الجدل حول علاقة الخفاء بمسلك «وان تيهاي» استمرّ طويلاً دون أن تتحقّق الغلبة لأي طرف، ودون أن يتوصّل أحد لسرّ افتتان العاشق بما لم يعشقه إنسان قبل ذلك اليوم: الظلام!

5

يروي مَنْ عاصره من شيوخ القبيلة أنه كان وحيد أبويه. وقد ورث عنهما إماءً وأقناناً وقطعان إبل فاضت بها الوديان والسهول والحمادة. ويقال إنه عرف الاستهتار في شبابه، فتسلل إلى الأخبية بعد انتصاف الليالي ليسامر بنات القبيلة، وعندما ضُبط في إحدى هذه الغزوات شذّ في الآفاق، وسافر إلى القبائل المجاورة ليسامر صبايا الأتباع. في ربوع إحدى هذه القبائل وقع الاعتداء عندما هوت على رأسه أم إحدى الصبايا بهراوة الطلح ففقد وقاره في أوّل امتحان وصفع العجوز حتى أغمي عليها، ثم قيّد لها اليدين والرجلين وأحكم عليها الوثاق حول ركيزة الخباء فيما كانت المعشوقة تتوسّل وتستغيث. يُقال أيضاً إنه لم يكتفِ يومها بهذا الفعل الأحمق، ولكنه خرج إلى أمتعته التي تركها في الوادي المجاور ليأتي بالسوط المعلّق في طرف السرج. ولو لم يستجب رجال القبيلة لاستغاثات الفتاة ويهرعوا إلى الخباء لما نجت العجوز الشقيّة من الجلد، ولعرف العشق عاراً لم يعرفه في تاريخه كلّه. وبرغم أن الرجال حالوا في ذلك اليوم دون تنفيذ القصاص المخجل، إلا أن قصائد الهجاء تحدّثت عن العقاب كأمر واقع، ووصفت أشعار كثيرة، بخبث التعبير وقدرة الكلم على المراوغة والمبالغة، تفاصيل

الفعلة، وانتهت في الختام إلى وصف الدماء التي لعقتها ألسنة السوط من جسد العجوز، دون أن تنسى الشاعرة اللئيمة أن تنعت «وان تيهاي» سخريةً بـ«الفارس». كما لم تنسَ الأشعار تناول تلك الوصيّة المزعومة التي قيل إن المعشوقة بعثت بها إلى العاشق الأهوج بعد الفضيحة وتقول: «هيهات أن يفي الفارس بالوعد، ويحتمل المعشوقة إلى الأبد، إذا عجز عن احتمال أم المعشوقة ليلة!».

ولكن الحيلة لم تغب عن أولئك الذين عاشروا الشعراء، وعرفوا طبيعة الأشعار، لأنهم أدركوا، من قديم، أن القصيد لا يكون قصيداً حقيقيّاً إذا لم يتنفّس أهواء المغالاة، بل إذا لم يتنفّس كذباً!

بعدها رأى الفارس أن يهجر سبيل العشق، ويجرّب معاشرة بنات النبلاء من جهة الناموس.

اقترن «وان تيهاي» ثلاث مرّات.

القرينة الأولى تعود بنسبها إلى قبائل «آهجّار» نزع أسلافها إلى الصحراء الشرقية في أزمنة جثم فيها الجدب على مراعيهم أعواماً، فمكثوا، وتزاوجوا، وظلّوا يحلمون بالعودة إلى أوطانهم، ويردّدون الأشعار عن قساوة المنافي كما يفعل كلّ من

ابتعد عن مسقط الرأس، ولم يكفوا عن التغنّي والحلم والشكوى حتى بعد أن اجتاحت السيول صحاريهم أعواماً متتالية، لأن الوطن إذا فقدناه طويلاً صار حُلماً كبيراً يصغر إلى جواره الوطن، والأقوام رأت، في تاريخها الطويل، كيف يتوجّع المغتربون عندما يعودون إلى الأوطان بعد غياب دام طويلاً، ويعانون الخيبة وفجائع أخرى خفيّة غالباً ما تدفعهم لأن يضعوا حدّاً لحياتهم بأيديهم. ربما لهذا السبب أيضاً آثر أسلاف الفتاة أن يكتفوا بالتغنّي ببلاد قاسية لفظتهم وقت المحنة، فحوّلها الحنين فردوساً، وصنعت منها المسافة «واو» الصحراء الضائعة، بدل ارتكاب ذلك الفعل الأحمق المسمّى في لغة الغرباء عودةً. ولكن يبدو أن القرينة لم ترث عن نبالة أسلافها إلا اللون. فيُروى أنها كانت في بياض الحسان التي تقول الأساطير إنهن جئن إلى الصحراء أوّل مرّة في ركاب الكاهنة «تين هنان» بعد غرق الوطن الأوّل في جزائر البحر المحيط. لم تكن البشرة بيضاء تماماً (إذ لا وجود لبشرة بيضاء في سلالة الإنس)، ولكنها مشبعة بلون زهرة نبتة الحمّيض التي تنمو بين الأحجار على سفوح جبال حمادة «تينغرت». وهو لون لم يكن قريناً للبهاء في نفوس عشّاق الجمال فحسب، ولكنه صار علّة كلّ جاذبية في أشعار أكثر شعراء القبائل نبوغاً. ولعلّ «وان

تيهاي» بأطواره الغريبة كان أوّل رجل يخيّب ظنّ الأنداد في مزايا هذا اللون. ذلك أن قرانه بحسناء الأساطير لم يدم أكثر من ثلاثة أيام. حيث استيقظ المنتجع في اليوم الرابع على هرجة، فكانت مكافأة كلّ من ضحّى بلذّة نوم الفجر، في ذلك الصبح، أن فاز بمشاهدة شبح رجل ينطلق، في عتمة القبس، وراء امرأة تركض في الخلاء باتجاه المضارب، ترتطم بحجارة السبيل، أو تعثر في أطراف ثوبها فتسقط أرضاً، تنهض فزعاً من السوط الذي يتهدّد ظهرها، لتواصل الولولة والفرار.

نهش الفضول قلوب النساء، فهرعن إليها في الحال. تحلّقن حولها وانهالت الأسئلة وبدأ الاستجواب. قال بعضٌ إنها تحدّثت عن سبب الشجار فقالت كلاماً ما قُدّر له أن يبقى سرّاً. وسخر بعضٌ آخر من هذا الزعم فقالوا إنها لو قالت كلاماً على مسمع النساء لسمعه العابرون والرعاة وتجّار القوافل في أبعد ركن في الصحراء قبل أن يرتدّ إلى العين طرفها، لأن أهل الخلاء قد جرّبوا أن الريح والجنّ وكائنات الخفاء هي التي تنقل الأخبار عن النساء بموجب عهد قديم، خفيّ. والسرّ الحقيقي في ذلك اليوم أبقته القرينة في صدرها، لأنها كانت تترنّح يمنة ويسرة وتحتوي رأسها بكلتا يديها وتردّد بوَجْد مجاذيب حفلات السَّمَر: «مخجل! مخجل! هذا مخجل!».

احترقت قلوب النساء فضولاً، واحتكمن إلى أكثر حيلهن خبثاً لمعرفة الأمر المخجل، ولكن الفتاة مضت تتمتم باللفظ الوحيد الذي جرى على لسانها، كأنها تحتمي من شرّ مجهول بتلك التعويذة.

6

القرينة الثانية لم تكن ذات بشرة تقطر دماً كسليلة قبائل «آهجّار» ولكنها نافستها في البهاء، بل فاقتها جمالاً باعتراف شاعرات القبيلة اللائي لم يُعرف أنهن اعترفْن لحسناء بحُسْن، لأن السماء التي ألهمتهن شعراً شجيّاً، حرمتهن، كما تبرهن على ذلك قصائدهن، رؤية أي سيماء حسنة في أيّ امرأة. وفي حين يفسّر الخبثاء هذه الخصلة الرذيلة بغيرة كل امرأة من محاسن كل امرأة، يُرجِع الحكماء الأمر إلى سرّ أبعد كثيراً من رذيلة الحسَد، ويقولون أن لا أحد اكتشف سرّ المرأة مثل المرأة، وأن عدم رؤية الحسناء حُسْناً في حسناء ينطوي على حكمة هيهات أن ينالها أدهى الرجال، والمرأة، في الحقّ، لا تزداد قبحاً إلا إذا ازدادت حُسْناً، وذكّر هؤلاء بوصيّة ضائعة من وصايا الناموس تقول: «ما أقبح المرأة الحسناء!». ولمّا لم يفهم السواد الأعظم المعنى الكامن في قبح الحُسن، تحدّث هؤلاء

الدهاة عن «تانْجَالْتْ(*)» بلغة زادت الأمر غموضاً، ولكنهم أحالوا من غابت عنهم الاستعارة في النهاية إلى الشعراء، لأن توريات اللغة وخفايا اللسان هي حرفتهم على حد زعمهم.

قرينة «وان تيهاي» وحدها كانت الاستثناء. فقد فازت بالثناء على حسنها في أشعار أكثر من شاعرة، وفي أبيات واضحة لا تقبل التأويل. حدث ذلك في السنوات التي نزلت فيها ربوع القبيلة قادمة من مكان ما في صحاري الغرب. جاءت مصحوبة بإماء وعبيد وأتباع وقطعان كثيفة من الإبل. حسِبَها القوم أميرة من أميرات ملل الجنوب اللائي يروق لهن شذّ الآفاق، وعبور الممالك كأنهن يهاجرن تنفيذاً لنذر أو تلبيةً لنداء سماوي. ولكن الحسناء نفت انتسابها لسلالات «إِمَنَنَان»(*) بتأفّف من لا يرى شرفاً في الانتساب إلى هذه الملّة. الاشمئزاز في لهجة بنت الأغراب استفزّ الكثيرين. ففي حين نال إكبار العقلاء، ورأوا فيه علامة صدق قلّما وجدوا له مثيلاً عند أولئك الذين اختاروا الغربة وطناً، أثار شكوك الفئة الأخرى السبّاقة إلى الشكوك. هؤلاء هم من نشر في القبيلة الشائعة التي تقول إن بنت الأغراب ليست ابنة أغراب، ولكنها من بنات الجنّ، والبرهان هو نفيها

(*) التَّوْرِيَة.

(*) أهل الحكم. الأُسَر الحاكمة.

الانتساب لأعراق أبناء السماوات (الذين رأتهم كل أمم الصحراء في «إمنَنَان»)، لأن الجنّ هم الأمّة الوحيدة التي تكنّ احتقاراً موروثاً لكل حُكم، ولأبناء أهل الحكم، لسبب خفيّ استعصى حتّى على العرّافين والسحرة. والبرهان الثاني، الذي ساقه المشكّكون للتدليل على زعمهم، هو ثورة المرأة من القطعان التي قالوا إنها لا تندثر في مواسم الجدب التي عمّت صحاري ذلك الزمان، ولكنها تتكاثر، لأنها ليست قطعان سلالة الإنس. ولم يمضِ وقت طويل حتى التقط هؤلاء أشعار المديح من أفواه الشاعرات ولوّحوا بها كحُجَّة أخرى. تساءلوا: «هل كانت شاعرات القبيلة سيمدحن حسناء تنافسهن في امتلاك قلوب العشّاق لو كانت الغريمة حسناء من بنات الإنس؟». وعندما اجتمعت الوافدة بجلالة الزعيم، وخرجت من خبائه برقعة الأمان في اليوم نفسِه، تلقّف أهل الشكّ الخبر، وعقّبوا بالقول إنه لم يحدث في تاريخ القبيلة أن نال زائر ينشد الحماية رقعة الأمان بالسرعة التي انتزعت بها تلك الجنّية رقعتها من كفّ الزعيم.

بعدها خفت الهرج حول سلالة الحسناء زمناً، ليعود إلى الذروة عندما قررت الاقتران بمريد الظلام، فوثب الشكّاكون من مكامنهم من زوايا الأخبية، وفرّكوا أيديهم ابتهاجاً بالحدث، وقالوا إن الداهية كشفت عن هويتها أخيراً، لأنها لم ترتضِ

عُشب الليل

الاقتران بسليل الظلمات طمعاً في ماله، فهي تملك أموالاً تفوق ما يملك أضعافاً، ولم ترتبط به لتتباهى ببطولاته في الغزوات، لأن الشقيّ لم يخرج يوماً في غزوة، ولم يأتِ في حياته فعلاً بطوليّاً واحداً، ولكنها أرادته قريناً لعلّة عشقه للظلمات، ولأن ابنة الجنّ لن تكون سليلة الجنّ إذا لم تختر سليل الجن قريناً.

7

ولكن ابنة الجنّ لم تستسغ ابن الجنّ طويلاً. فقد فرّت من خباء القران بعد أيام. عادت إلى خبائها، فطاردها إلى هناك لاستعادتها، ففرّت للاختباء في خباء الزعيم. ويُقال إنها لم تطلب منه الحماية فحسب، ولكنها توسّلته أن ينتقم لها. اعتدل الحكيم في جلسته، وومضت في مقلتيه بسمته الطفولية الجذّابة، وحرث الأرض بأكثر الرموز غموضاً قبل أن يقول لها إن واجب الزعيم أن يحمي الرعايا من اعتداء الأعداء، ولكنه لا يستطيع أن يتدخّل في شؤون القرناء أو أهواء الدهماء. حاججته بالقول إن من واجب الزعماء أن يردّوا الظالم عن المظلوم وينصفوا المستضعفين والأغراب، وكلّ من لا حول له. فصمت طويلاً، ووسم التراب بأشدّ العلامات غموضاً، ثم استجاب لها بهزّة من عمامته الجليلة.

عادت بنت الأغراب إلى خبائها نهائياً، وجاءتها القرينات لانتزاع السرّ. ولكن اللئيمة لم تتحدّث عن سبب الخلاف أبداً. افترس الفضول قلوب أهل الفضول، فأكثروا الصبايا، وأغدقوا على إماء الحسناء بالعطايا، وبعثوا إلى معقل اللئيمة بالجواسيس والقرينات. فعلوا كل ذلك طمعاً في الوصول إلى السرّ. ولكن الجنّية كانت تحدّق في الفراغ الصحراوي الخالد في كل مرّة تُسأل فيها عن السرّ، وتبقى معلّقة هناك حتى ييأس السائل، ويتسلّل خارج الخباء. بعد اليأس تكلّم الخبثاء: «هذه ليست سليلة قبائل «آهجّار» حتى تتلّذذوا بسماع اللّفظ النبيل الذي يوميء إلى كلّ فعل معيب. هذه ليست سليلة القبيلة حتى تسمعوا منها ما يجب أن يُسمع. هذه جنيّة من بنات الخفاء. أبناء الخفاء وحدهم أوتوا القدرة على كتمان السرّ. لو كانت من بنات الإنس لفضّلت أن يُحزّ رأسها عن جسدها على أن تنام ليلة وفي قلبها سرّ. ألم نقل لكم منذ أول يوم إن المرأة ليست امرأة، ولكنها زائرة من زائرات الخفاء؟». وجاء اختفاء الحسناء من ربوع القبيلة كحجّة أخرى هلّل لها أهل الشكّ وزعزعت العقلاء. تركت وراءها كل ما ملكت، وفرّت إلى المجهول. بعدها تحدّث أهل اليقين عن انتماء بنت الأغراب لسلالات المجهول لأوّل مرّة.

8

إلى ذلك العهد أرجع المؤرخون تبلور هويّة «وان تيهاي»، وافتضاح تعلّقه بالظلمات. ابتعد عن النجع، وأمر عبيده أن ينصبوا له الخباء بعيداً. وشاءت الأقدار أن يتحرّك المماليك في خلاء الغرب، لينصبوا ركيزة الخباء على حافة وادٍ أطلق عليه العابرون اسم «وادي الجنّ» بسبب ما عاناه أولئك الذين نزلوه، عبر التاريخ، من مضايقات القبيلة الخفيّة. انزوى في ركن خباء منسوج من وبر فاحم، وبدأ هناك يتشح بألبسة السواد ويتحدّث إلى نفسه بأعلى الأصوات. تجنّب أهل القبيلة، وتوقف عن زيارة العقلاء، وصار لا يخرج للتسكع في «وادي الجنّ» إلا في الليالي التي تتغيّب فيها الأقمار، ويتمادى سلطان الظلمات. يروق له في هذه الجولات أن يحاور الكائنات المجهولة بصوت عالٍ، ويعاركهم بألفاظ حرّمها الناموس على القوم، وقد يتضاحك بأصوات أعلى كأنه يستجيب لمُلَح رفاق الخفاء.

وبرغم أن الجميع قد اقتنع أن محنة الرجل لم تشهد ذروتها إلا في ذلك العهد الذي أعقب انتهاء العلاقة مع الحسناء وفرار بنت الغرباء إلى أفق مجهول، إلا أن العرّافين رأوا رأياً آخر عندما أكّدوا أن لا شيء أبداً يحدث لابن الإنس بين يوم وليلة كما يعتقد البلهاء، وحتى تلك الأطوار التي يراها الناس غريبة،

وتتكشّف للكثيرين في أرذل الأعمار، إنما ترجع، في الحقّ، إلى الطفولة، وإلى تاريخ أبعد من الطفولة. وبرغم أن البسطاء لم يفهموا إيماء الكهنة إلى التاريخ الأبعد من الطفولة، وطاب لهم أن يتجادلوا في أمْرِه مراراً، إلا أن السواد الأعظم بارك نبوءة العرّافين، ورأوا في إبهامها غموضاً كان شرطاً لكلّ نبوءة.

في ذلك الوقت سمع المماليك هذيان مولاهم الذي طاب له أن يردّد في جولاته الليليّة عبارة تقول: «خاويات. خاويات. ما أكبر خواء البيضاوات. أوه. يا سماء الصحراء الموشومة بالنجوم، ما أقبح البيضاوات!».

بعد انتشار الأغنية الجديدة بزمن قصير فوجىء القوم بالشقيّ يدخل إلى بيته قرينة جديدة: كانت أمَة زنجيّة أشدّ سواداً من قطعة الفحم.

9

«خاويات. خاويات. ما أشدّ خواء البياض، وما أقبح نساء البياض. هىء هىء هىء..».

حاكت الإماء تعويذة سيّدهن بلهجة لا تخلو من سخرية. ولكنهن تحدّثن لإماء بقيّة النبلاء عن الأغنية بتباهٍ وإكبار. ذلك أن هذه الأمَة المستضعفة التي تعتقد أن سواد بشرتها هو سرّ

بلائها، وجدت في بدعة مولاها طعنة جسورة لقناعات قبيلة ورثت عن أسلافها أعرافاً تمجّد البريق، وتقدّس البياض، في حين تجتنب السواد، وتحطّ من شأنه في أشعار الهجاء وتعلّم أجيالها منذ الطفولة الأولى أن السّواد برّ كريه تسكنه الغيلان والجنّ والسعالي وأهل الدنس.

لم يعتد العبيد أن يخفوا كراهيتهم للون رأوه سبب وقوعهم في الأسر، وأجاز لأناس لا يمتازون عنهم بفضيلة غير قشرة بئيسة اسمها البياض، أن يتسلّطوا عليهم، ويمتلكوا حياتهم وذريتهم من بعدهم، ولكنهم لم يتذلّلوا للنقيض أيضاً، ولم يروا فيه بهاءً أو جمالاً أو فتنة، بل كانوا يسخرون منه في قرارة أنفسهم وفي خلواتهم التي يغيب عنها أهل البياض، ويتندّرون على إعجاب السادة بأنفسهم وبلونهم وببهائهم المزعوم. وما إن ابتدأ المولى بدعته، ودأب على تحقير لونه ولون أبناء قبيلته، حتى ابتهج المماليك، ولكنهم أخفوا فرحتهم أمداً ارتياباً. ذلك أن السياط علّمت الأشقياء أن يرتابوا في كل شيء، ولا يصدقوا أي شيء، وتعلّموا أيضاً أن لا يسمعوا ولا يبصروا، وإذا أبصروا قَسْراً كذّبوا، في الحال، ما أبصروا، وإذا سمعوا عفواً نسوا، في الحال، ما سمعوا. ولأنهم جرّبوا دهاء السادة، وخبث من ملّكتهم الأقدار لأيديهم، فقد صنعوا لأنفسهم ناموساً يقضي بألاّ

يصدّقوا ما يُرى، ولا يؤمنوا بما يُسمع، ويحترسوا من الحيلة، لأن الحيلة لم تكن وسيلة السادة للحياة، ولكنها هي الحياة نفسها. ولولا الحيلة، لولا هذه التميمة الخفيّة، لما امتلكهم هؤلاء الدهاة يوماً واحداً برغم بليّة اللون.

ولكن الطبع لا بد أن يغلب في آخر الشوط. والحياة كانت ستصير همّاً أكبر لو لم يُخلق ما يبهج القلب، وخنق الفرح أكثر مما يجب ارتضاء للكمد واستدعاء له. لا بد للطبع أن ينتصر مهما عظم الخطر، لأن الطبع هو الحياة التي يستطيع الإنسان أن يعيشها ولا يستطيع أن يخفيها.

جاهر المستضعفون بالبهجة، وقالت الإماء إنهن سألن سيّدهن عن سرّ كراهيته للون عَبَدته المِلَل، وعظّمته الأمم، وتغنت بمحاسنه الشاعرات والشعراء، ووضعه الحكماء سيّداً على كل الألوان، فهأهأ بضحكاته المخنوقة وأجاب: «البياض خدعة. اللون الأبيض أكبر خدعة. اللون الأبيض لا يخفي شيئاً لأنه لا يملك ما يخفيه. وهذه هي رذيلة الخواء. فلماذا لا نسمّي الأشياء بأسمائها؟». وفي مرّة أخرى قال: «البياض بادٍ للعيان. البياض مفضوح كبتول فقدت بكارتها، والبتول تفقد سرّها إذا فقدت البكارة. وإذا فُقد السرّ ضاع الجمال. هل أراهن بقطعاني كلّها لكي أبرهن للبلهاء أن لا جمال لشيء أضاع

سرّه؟». وادّعى أحد العبيد المقرّبين إليه أنه سأله عن مزايا السواد فتأوّه، وترنّح، وأطلق أنيناً يشبه أنين الشجون الذي اعتادت القبيلة أن تسمعه من المعمّر «أمّامّا»، ثم تكلّم كأنه يغني: «السواد. السواد. ماذا تعرفون عن السواد؟ ماذا ترون في السواد غير السواد؟ ماذا ترون وراء السواد غير الظلمة التي تسمونها سواداً؟ هل تساءلتم يوماً عمّا يخفيه هذا الحجاب النّبيل؟ أتستنكرون أن أنعته بالحجاب النبيل؟ ألا تدرون أنه ليس سوى علامة جليلة يقف خلفها الخفاء؟ أم أن فيكم من يدّعي أنه وجد خفاءً يتسكّع في خلاء الضياء؟ أو فيكم من يجرؤ على التأكيد أنه قابل الخفاء خارج بيته في العراء؟ اعلموا أن العتمة ليست إيماء الخفاء فحسب، ليست حجابه النبيل فحسب، ولكنها وطنه».

بعد الاقتران ببنت الأدغال ازداد بالسواد تَعلُّقاً، وكبر في عينيه حُسْن العتمة إلى حدّ ألْهَمه الشِّعْر، فعاند أبياتاً أثنى عليها كلّ من سمعها، وجرّب أن يغنيها بنفسه في جولاته الليلية في ظلمات «وادي الجنّ»، فتجسّس للسماع الصبيان والفضوليون وبعض المماليك، وعادوا للمضارب ليقولوا للظامئين دوماً لسماع الأنباء إن الأشعار لم تكن سيئة أبداً، والصوت لا ينقصه الصفاء، واللحون شجيّة أيضاً، والرجل لا يبدو مأخوذاً إلى حدّ

اليأس، ولو أُخضع رأسه للحرق بنيران قضبان الحديد فسيعود يقيناً إلى العقل وإلى ربوع القبيلة.

10

الآن، فقط، عرف سرّ العرّافين العميان.

الآن، فقط، عرف سبب تفوّقهم على قرناء البصر الذين يعتقد الناس أنهم يبصرون. الآن، بعد أن جرّب ضياء المملكة الخفيّة التي يسمّيها بلهاء القبائل ظلمة، وتحمّم بسلسبيل النبوءة، وتلبّس الخفاء في وطن الحقيقة، الآن، فحسب، أكبر في الكهنة الحقيقيين عشقهم للظلّ، وتعلّقهم بالعماء، واستهانتهم برؤيا العين، لأنهم لم يروا فيها أكثر مما يجب أن يُرى بحدقة العين، لم يروا فيها أبعد من المدى المكشوف على الفراغ، المدى المنتهك، المدنّس، المقلوب، الذي انتُزعت منه اللؤلؤة، وسُرق من بين يديه الكنز، وأُخفي بعيداً، في حين تُرك الجلد جلداً مفروشاً على الخارج، على الضياء المزوّر الذي يسلب أي ضياء حقيقيّ ليحوّله إلى مجرد بريق يتغامز تحت الشعاع. الآن، بعد أن اقترب من الحرم خطوة، وأُوتي من علم النبوءة قليلاً، واكتشف زيف البريق، زيف المعدن الذي يراه البلهاء كنزاً، ويتعبدون له، وينحرون له القرابين تقرّباً،

ويقسمون باسمه كأنه الآلهة، ويسمونه ضياءً بالباطل، الآن استشرف دهاء الدهاة الذين يسملون عيونهم، ويحرقون محاجرهم بالنّار، كي يرتدّوا إلى الوراء، ويسكنوا الظلال، ويتنعّموا بمشاهدة الضياء الحقيقي، الضياء الممتلىء، الضياء المسكون بالنبوءة. كان يظنّ، في الماضي، أن العماء هو فقدان البصر، ولكن مسلك الدهاة علّمه أن العماء في البريق، في الأشياء العارية، العراء المفتوح على المدى، في الخلاء الملفوف بالضياء الأجوف. العرّافون الشجعان علّموه أن يهجر المدى إلى الأبد، وينسى أن الضياء هو ضياء الشموس، ويركن إلى الظلّ، لينكفىء بعيداً، بعيداً، إذا شاء الفوز بتلك الرؤية التي شبّهها أحدهم مرّة بالسرّ الذي لا يعترف إلا بالخفاء، فإن أفلت، وطلع للضوء فَقَدْتُه إلى الأبد، وفقد هو نفسه أيضاً، لأنّه هناك، في الدائرة المميتة المسمّاة «خارجاً»، سيفقد نفسه أيضاً، إذ في هذه المساحة المغسولة بضياء البرّيّة، ترابط قبيلة من الغيلان التي تريد أن تضع في يديه القيد وتجرّه إلى أقبيتها ليصير مملوكاً من مماليكها الخالدين. ثمّ.. ثمّ ما هذا الإغواء الذي يشعّ من البريق؟ لماذا يراهم يتدافعون بالمناكب، ويتعاركون كالغوغاء، ما إن يتَبَدَّ في الأفق وميض، أو تتلامعْ شظية على قارعة الطريق؟ لِمَ يراهم يتنافسون، إلى حدّ الهلاك، على هباء

لا يختلف عن أي هباء إلا بسبب البريق؟ لِمَ يتلهفون لنيل اللقية، ويجردون السيوف بعضهم على بعضٍ لمجرد أنها لمعت تحت الضوء الكذّاب بوميض الكذب؟ لماذا لم يكتشفوا عبر تاريخهم الطويل أن الهباء اللعوب لم يغنِ أحداً، واللقية لم تنقذ من جوع؟ فلماذا ينسون في كلّ مرّة فيُستدرَجون ولا يتّعظون؟ أم أن سلطان الإغواء في البريق مستعار من الإغواء الأصلي الذي وضعت له الحسناء ناموسه القديم في «واو»؟ ألم يكن سلاح اللئيمة، الذي صرعت به العاشق البائس فطرده سلطان الخفاء من مملكة الخفاء، قصاصاً؟ ألن يكون البريق مزيّفاً لأنه لا يرتوي إلا من النبع الأوّل، النبع الآثم، نبع الإغواء؟

فكيف لا يصير الفضاء كريهاً ما دام للبريق قريناً؟ وكيف لا يظلّ الظلّ فردوساً ما دام للنبوءة وطناً، وللرؤية برّاً؟

11

يخرج ما إن يختَفِ من الصحراء وشاح الكذب، وترجع السيادة للظلّ. لا شعاع، لا بصيص، ولا حتّى قبس ضئيل، فيخرج..

ينزل السفح الوضيع، يمرق بين أحراش الرتم، يتنفّس الوادي بأنسام المساء، فتولول شجيرات الدغل، وتغنّ

خصلات الرتم لحن الليل. في الأعالي تومىء الأنواء بسرّ الظلمات، وتوشوش بحقيقة الأنواء: أوجد الليل بنجومه ساعة أراد أن يقيم للأكوان برهان وجوده، فصنع بيديه علامةً. وشّى بها البدن الخفيّ ليضع لعابر السبيل نصباً، واختطّ بها الجبين وسْماً يراه برؤيتها كلّ من رأى. في هذا النسيم النبيل يتخفّى. في هذا الوشاح يتدثّر. بهذا الوشاح يجب أن يتوارى الفارّون من الزيف، المنكفئون إلى الركن الذي لا يتهدّد ولا يتوعّد. في هذا النطاق تطيب السلوى، ويركن الكائن للصمت والسلم والانقطاع. في دروب المملكة امتلاء وأُلفة وكلّ أمر حميم، فلماذا يتحفّز البلهاء للقاء التهلكة؟ لماذا يندفعون إلى ألسنة النار ليحترقوا بألسنة النّار؟ ألم يروا مآل الكائنات التي اختارت العيش تحت الشموس؟ ألم يجربوا الخصام والمكائد والكراهية وكل أمر شقيّ؟ هل طاب العيش لمخلوق دبّ تحت شعاعات الشمس يوماً؟

هل خذل الخفاء إنساناً استجار به يوماً ووُجد مأخوذاً على غفلة؟ لماذا يريدونه أن يقتنع بالخروج وهم أعلم بأنه، إذا خرج، لن يخرج إلا للطعن والفناء؟ أم أن الناس لا تريد بالناس إلا شرّاً، وما على الإنسان الحكيم إلا أن يأتي ضدّاً في كل أمر؟

لقد أدركْتَ الخطر منذ زمن بعيد. خطر التبدّي. خطر الظهور. خطر التباهي بما ملكت يداك حتى لو كان هذا البدن الهزيل. خطر أن تُرى بالعين. خطر أن تدبّ أمامهم على قدمين. خطر أن تحيا. سيكيدون. سيكيدون لأنك تدبّ مثلهم على قدمين، لأنك ترفل في الثوب الأزرق، وترتدي اللثام الأزرق، وتحشر قدميك في النعل، وتمشي برأس مرفوع إلى أعلى قليلاً، الرأس المرفوع إلى أعلى تحت ضياء الشمس عمل مميت حقاً في الناموس، في ناموسهم، في كل النواميس التي وُجدت تحت أشعة الشمس. سوف تتهم بالكبرياء، سوف تثير حسداً، سوف تستثير حقداً، وستنطلق الألسن، وستنصب لك الفخاخ، لأنك تجاسرت فخرجت نهاراً، وشوهدت بالعين، ومشيت مشية المكابرين الذين يمشون في الأرض فرحين، وكنت طوال ذلك الوقت تنظر إلى الأفق البعيد كأنك إله من آلهة القدماء، وتتنفّس بطريقة مريبة، و.. تحيا، أسوأ ما في الأمر كلّه أنّك تحيا. لا حقّ لإنسان أن يحيا إذا كان جاره يحيا. لا يحق لإنسان أن يحيا إذا كان في الصحراء كلّها إنسان واحد يحيا. الحياة لا تحتمل حياة أخرى أبداً. الإنسان يعيش شقيّاً جدّاً إذا جاء نبأ يقول بأن ثمة إنساناً في الكون الأبدي يدبّ، ويتنفّس بعمق، ويستمتع، و.. يحيا مثله. أوه ما أشدّ شقاء

إنس يعلم أن ابن ملّته يحيا في مكان ما في الصحراء التي لا يحدّها حدّ.

ما إن يعلم الإنسان بأن له أخاً يحيا في الرقعة المجهولة حتى يصبح لا بدّ له من أن يحتال، ويبتدع، ويركب الريح ليصل إليه. يصل إليه، يرتمي بين ذراعيه، يحتضنه بحرارة، ويبكي بدموع الحنين بين يديه، ثم يستغفله ليطعنه في الظهر الطعنة المميتة. هذا هو الإنسان. هذا هو الإنسان الذي يثور عندما تجاهر بالحقّ وتخبره بحقيقته. لقد أغضب الكثيرين، وفقد أقراناً أكثر، لأنه كلمهم بالأمر.

لم يترك حتى الزعيم. حدّث الزعيم بالأمر فتحيّر، وحدجه بنظرة غائبة، غريبة. كان يعبث بحبيبات الحصى في ظلّ الخباء في إحدى العشيّات. وقد ظلّ بصره معلّقاً به طويلاً جدّاً. كما يطلق صوتاً غريباً، صوتاً يشبه أنين المحمومين، ويعبث بالحصباء، ويحدّق في عينيه. ساعتها رأى في عينيه شقاء فشعر نحوه بشفقة. أوضح له يومها: «إذا كان مولاي يشكّ في ما أقول فلماذا نحس بالسعادة عندما نسمع أن إنساناً مات برغم أنه لم يكن لنا عدواً، ولم يعرفنا، ولم نعرفه؟». ارتجف الزعيم في ذلك اليوم. ارتجف حتى اضطرّ أن يسدل لثامه على عينيه. لم ينبس.

فكيف يستطيع أن يحتمل الحياة مع هؤلاء تحت سقف واحد؟ ألا يدرون أنه، إن لم يفرّ إلى أبعد الظلمات، فإنه سيضطرّ أن يرفع يده بالمدية أيضاً ليقتل أخاً؟ فرّ إلى الأسافل، واعتصم بالتيه، فتململ في صدره شوق. بحث عن العزاء لداء المعتزلة، فوجده في العشبة.

جرّبها تحايلاً على الوحشة في البدء، ثم اكتشف مزاياها الخفيّة فجفّفها، وهرسها، ودسّها في صرّة تحت الكمّ كما تُدسّ كل التمائم. وجدها أوّل مرة في السفح الوضيع. ووجدها مرّة أخرى في شقوق حجارة سخيّة تفترش الحضيض. وجدها في موسم صيفيّ أشعل النيران في ظلمات الليالي. كانت الأرض تتنفّس صهداً كأنّها تنفث سُمّاً حتى بعد غياب الشمس. وجدها في زمن عانت الصحراء فيه من جدب استمرّ أعواماً، فازداد نهم الشموس، فحرقت حجارة العراء بعد أن فرغت من العليق المتيبّس وحوّلته إلى هباء. فمن أين جاءت النَّبتة الخفيّة في وادٍ تكاد تحترق فيه حتى الحجارة؟ وهل لها نصيب من سرّ شجيرات الرتم التي لا تشحب، ولا تتيبّس، ولا تحترق حتى بعد احتراق الحجارة؟

يقال إنها ترتوي من أنسام الشمال مثلها مثل الطّلح والودّان والغزلان. في ذلك اليوم خرج إلى الوادي حافياً. علّق العصا

بموازاة المنكبين، وبدأ يروض بيتاً شعرياً جديداً عندما هرسها بقدمه. أحسّ بسائل لزج يغمر بطن القدم فكذّب نفسه ومضى خطوات أُخرى. سرى في القدم خدر، وخفّ وقعها على الأرض، ثم فقد الإحساس بها نهائيّاً. عاد على عقبيه وفتّش عن العشبة بين الشقوق. كانت هزيلة الحجم، ذات أوراق بيضوية التكوين، تلتئم حول نفسها كقنفذ، ينزّ منها سائل لزج ناصع اللون. تذوّق السائل بطرف اللسان فوجد طعمه غامضاً ذكّره بطعم أعشاب كثيرة، أو بطعم خليط من الأعشاب. طعم قديم أشعل في صدره الفضول والحنين. نهش نصيباً من الورقة المنكمشة حول نفسها كأنها تجاهد، بانكفائها، لإخفاء سرّها، فتزعزع فجأة وخرج. . خرج للمرّة الثانية. خرج من الصحراء ليطوف ممالك حَلُم بها كثيراً، ولكنه لم يبلغها أبداً، ونزل أقواماً عاشوا فيه طويلاً، ولم يصدّق بوجودهم يوماً، وتنعّم بهناء لم يعرفه، ولم يذق له طعماً، ولم يدرك له اسماً. فقد الوزر، وتحرّر من أركان الصحراء الأربعة، واستعاد شيئاً أضاعه منذ أمدٍ بعيد جدّاً. منذ آماد سبقت الميلاد، وسبقت أركان الصحراء الأربعة.

ولكن الشهوة المنكرة لم تستولِ عليه إلا في اليوم التالي.

توثّب في الركن مع حلول الضحى، ودارَ داخل الخباء

كفحل في موسم قرع النوق. احتضن الركيزة، تلوّى بجوار الموقد، لفظ من فمه زبداً كثيفاً، وبدأ يئن.

هرعت إليه إحدى الإماء. انحنت عليه مستفهمة، فأمسك بها من يدها، وجرّها إليه. لم يعرف أي الإماء افترش يومها، لأنه لم يتبيّن ملامحها في ظلمة الاشتهاء، ولكنه لن ينسى مدى الحياة السعادة التي نالها من تلك المرأة الظلماء في ذلك اليوم.

12

في يوم آخر تناقص الزاد فاحتاج إلى مزيد. أمر أحد العبيد أن يأتيه بنصيب جديد من الوادي. غاب الرسول زمناً، ثم عاد وأخبره بأن لا وجود في الوادي لغير الحجارة في السفوح، والطين في القيعان، وغمر كثير من سراب الظهيرة. اقترب منه غاضباً. توعّده بصرامة: «امضِ إلى السفوح. فتّش الشقوق. لقد رافقتني البارحة، ورأيت بعينيك أين استخرجت العشبة. فهل تضيع الموقع بين يوم وليلة أيها الأبله؟». ذهب المملوك. عاد بعد زمن. هزّ عمامته الكئيبة، البائدة، علامة النفي. ثم عقد يديه المعتمتين، الموسومتين بشقوق عميقة، وطأطأ رأسه في حضرة المولى كأنه ينتظر القصاص بتسليم. أومأ له مولاه أن يتكلّم فردّد ببلاهة: «لا شيء يا مولاي غير الحجارة والطين

والسراب. وإن لم يصدقني مولاي فليرافقني!». انتهره المولى: «هل عليّ أن أخرج للأضواء البلهاء، وأعرّض حياتي لأخطر الأخطار، لمجرّد أن عبدي الذي اشتريته بما ملكت يدي لا يستطيع أن يأتيني من الوادي المجاور بنبتة آتي بها كل ليلة؟».

ردّد العبد باليقين نفسه: «إن لم يصدّقني مولاي فليرافقني!». سكت المولى. تأمّل يدي المملوك، المشتبكتين حول قامته الماردة، بنظرة غائبة. غمغم أخيراً: «لم يخطىء الناموس عندما قال «آوَا تريد أكّي، آواوا تريد سوكي»(*). «آنهي» لم يخطىء أبداً!».

أحكم حول بدنه أكثر الألبسة كآبة وسواداً. وأسدل على عينيه الطرف العلوي من اللثام الأسود، واستدعى جمعاً من العبيد المسلّحين بالحراب والسيوف وأعمدة الطلح ليكوّنوا حوله طوقاً يحميه من كيد الكائدين. سار بعضهم في المقدمة، وسار آخرون بالجوار، في جهة اليمين وفي جهة اليسار، وسار بعضهم الآخر في المؤخرة لحماية الظهر.

في الوادي فتّش عن العشبة منذ الظهيرة حتى الأصيل. ولكن العشبة اختفت من أركان الوادي، وتبدّدت من شقوق

(*) ما أرَدْتَه، فاطلبه بنفسك، وما لم تُرِدْه فأرسل أحداً آخر لينجزه نيابةً عنك.

السفوح. اهتدى إلى أثر جولة البارحة، وعثر على المكان الذي انتزع منه حاجته من وجبة الليلة الفائتة، ولكن لا أثر تبقّى للعشبة. كأنّها انقطعت. كأنّ نيران القيلولة حرقتها حرقاً فتبدّد حتى رمادها وذرته رياح الجنوب. أو. . أو كأنّها لم تكن أصلاً ولم توجد، وما تناوله لم يكن إلا رؤيا من رؤى الليالي. شبح من أشباح الخفاء. فكيف تصير العشبة وهماً إذا كان قد عاقرها مراراً، واعتصرها بين أصابعه، وتلذّذ برحيقها، وطاف أبعد البلدان في كلّ مرّة؟ كيف يتحوّل اليوم هباءً، ما لمسه في ليل أمس لمس اليد؟

يئس فعاد إلى الخباء.

انتظر حلول العتمة وخرج إلى الوادي للقيام بالجولة الليلية.

لم يصدّق عندما وجد العشبة في المكان نفسه الذي فتّشه وحرثه مع عبيده في النهار.

13

في المساء، بعد تناول طعام العشاء، أقبل عليه العبد العجوز ليسامره. كان نحيفاً، قاتم البشرة، متشقق اليدين والقدمين، تتقاطع على ساعديه العاريين، المستورين بطبقة

خشنة، عروق نافرة تتكاثر عند المعصمين كشبكة كثيفة من سيور جلد كئيب اللون. في عينيه مرح أصيل، وفي بُنيته حيوية لا تتناسب مع قدمته في الزمان، برغم أنه يبدو، ككلّ أبناء الأدغال، أقل بكثير من عمره الحقيقي. ولا يزال يذكره بالملامح نفسها عندما كان طفلاً يدرّبه على صيد الطيور، ويصنع له من أعواد الطلح أفخاخاً لئيمة لاقتناص الأرانب في الوديان المجاورة. ويُقال إنه حمل الأب على ظهره أيضاً، وعلّمه الصيد، وصنع له الفخاخ لاصطياد الأرانب في الوديان المجاورة. ويروق للإماء أن يمازحنه فيلححن عليه في السؤال: «ما سرّ خلودك يا «بوبو»؟ خبّرنا: هل أُوتيت من الخفاء سرّاً؟» فيتبسّم العجوز ويردّ بجواب أبدي: «سرّي هو أني لا أملك سرّاً. الخفاء كان رفيقاً بي فلم يلهمني همّ السرّ يوماً». ويتندّر بعض العبيد فيروّجون لقول مفاده أنه حمل على ظهره الجدّ، وجدّ الجدّ، كما حمل على الظهر أجيالاً أخرى في بلاد الأدغال قبل أن تأتي به إلى الصحراء قافلة من قوافل التجارة.

تربّع في مدخل الخباء. انحنى فوق الأرض وانهمك في فعل ما يروق له أن يفعله دائماً في المجالس: تجميع وتفريق الحجارة. التقاط حبيبات الحصى ورسم الرموز المجهولة بالحصباء وتشتيتها لإعادة رسمها من جديد.

تابعه مهلة، ثم سأل بغتة:

ـ هل بلغك أمر العشبة؟

ردّ بلهجة خالية من الفضول:

ـ بلغني..

ـ هل بلغك مسلكها؟

ـ بلغني..

ـ هل أخبروك كيف اختفت بالنّهار وعادت لتظهر في الليل؟

ـ أخبروني..

ـ فهل سمعت من آبائك وأجدادك عن عشبة كهذه العشبة؟

ـ ...

ـ خبّرني أولاً: هل ينبت العشب في وديان الجدب؟

ـ في الصحراء، يا مولاي، يجب أن نتوقّع حِدوث أي شيء..

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ أردت أن أقول إن العشب ينبت في أكثر أعوام الجدب قساوة في الصحراء، وأردت أن أقول أيضاً إن الصحراء تستطيع أن تُنبت نبتها ليلاً وتحجبه نهاراً، أو تطلعه نهاراً، وتحجبه ليلاً. مسلك الصحراء عجيب يا مولاي، لأن الصحراء نفسها

أعجوبة. الصحراء أكبر أعجوبة يا مولاي!

ـ هل ورثت هذا عن الأسلاف يا «بوبو»؟

ـ صدق مولاي. هذا ممّا تركه لي أسلافي.

ـ ولكن حدّثني عن طبع العشبة الليلية. هل ترك الأسلاف وصيّة بشأن عشب الليل؟

أزال العجوز أجسام الحصباء بجمع يده اليمنى، ثم عاد يجمع الأنقاض بيده اليسرى. قال:

ـ لم يغب عن الأسلاف شيء يا مولاي. الأسلاف تركوا وصايا في كلّ شيء. ولولا النسيان لما احتجنا اليوم لدواء عطّار، ولا لنبوءة عرّاف.

ـ هل هي عشبة حقيقيّة؟

ـ وكيف يستطيع إنسان مثلي أن يقطع فيقول إن هذا حقيقي، وذاك غير حقيقي؟

ـ أعني أنها ما دامت لا تظهر إلا في الظلمة فلا شك في أنها ستكون عرضة للشكوك.

ـ ما يدرينا، يا مولاي، أن ما وجد في الظلمة هو الحقّ، وما ظهر للنور هو الزور؟

ـ الحق أني لم أتخذ من الظلام لباساً إلا ليقين خفيّ بصدق ما قلتَ.

ـ هل يستطيع مولاي أن يجزم بأن ضياء النهار هو ضياء حقيقي، وظلمات الليل هي ظلمة حقيقيّة؟

ـ لم أرَ يوماً إلا ما رأيت الآن، فهنيئاً لك!

ـ أردت أن أقول إن علينا أن نكون فيما نرى دائماً في شكّ، ونؤمن بوجود ما لا يُرى برغم حجج البلهاء.

ـ أحسنت. لقد رأيت أن ما أراه كذب منذ زمن بعيد، وتعلّقي ببيت العتمة دليل على ذلك.

ملأ كلتا يديه بحبيبات الحصى. عاد يزبر على الأرض العلامات. قال:

ـ يعرف مولاي أني لم أستهجن فعله كما استهجنته القبيلة، ولو رأيتُ مولاي يأتي أمراً منكراً لاستنكرته في الحال، لأن الناموس أعطاني هذا يوم حملتك على ظهري، وتبوّلت في حجري.

ـ نعم. نعم. عبيدنا الذي أنشأونا هم لنا آباء. هكذا قال الناموس. ولكن قل لي..

سكت مهلة. أحكم اللثام حول وجنتيه. قال بلغة الخبثاء:

ـ ولكن هل تناصر مسلكي مع النساء أيضاً؟ أعني هل تشاركني رأيي الذي يقول إن أجسادهن لم تخلق إلا لإمتاعنا، ومن حقنا أن نفعل بجمالهن وفتنتهن ما نشاء؟

ـ وهل خُلِق هذا الكائن لأمر آخر غير هذا؟

ـ هىء هىء هىء.. أحسنت. هذا يروق لي. ولكن دعنا نرجىء الجدل حول الفتنة إلى حين، وهيّا بنا نكمل ما بدأناه بشأن عشب الليل.

ـ عرفت الصحراء أعشاباً كثيرة لم يُعرف لها أب غير الظلام.

ـ عجب!

ـ تنمو بالليل. بعضها يزهر في هذه الوهلة، ولكنها تتبدّد ما إن يطلع شعاع الشمس، وتختفي كما يختفي أهل الصحراء من الصحراء.

ـ هل تظن أن لأهل الخفاء يداً في وجودها العابر؟

ـ قُل الخفاء، ولا تقُل أهل الخفاء يا مولاي. للخفاء يد في كل أمرٍ خفيّ، ولكن ليس لأهل الخفاء يد في كلّ ما نعتقد أن لهم يداً فيه، لأنهم ليسوا سوى مخلوقات مثلنا.

ـ هل استعملها القدماء في العقاقير؟

ـ يُروى أن ببعضها أعجب الخصال.

ـ أعترف لك أنها طافت بي البلدان، ورفعتني إلى. .

ـ أعرف. أعادتك إلى المكان الذي جئت منه يوماً. رفعتك إلى المملكة المنسيّة التي أباد البحث عنها ملل العابرين.

ـ أعترف لك بأنها أشعلت في رأسي ناراً. أشعلت في بدني شهوة لم أعرفها فعذّبت الإماء في المخدع عذاباً شديداً.

ـ لم تُخلق الأَمَة إلا لإمتاع المولى.

ـ هل ترى ذلك حقّاً؟ ألا تستنكر مسلكي مع النساء كما تستنكره القبيلة؟

ـ قلت لك إن المرأة مخلوق لم يُخلق إلا لهذا، وما دام الخفاء هو الذي أخرج لك العشبة من الخفاء من دون الناس جميعاً، فتلذّذ، وتلذّذ، وتلذّذ. . لأنك لن تأخذ معك إلى الهاوية إلا ما ألقى في قلبك فرحاً.

ـ أحسنت. أحسست منذ زمن بأنك الوحيد الذي لم يستنكر عزلتي أيضاً.

ـ بل كنت لك في سرّي من المشجّعين.

ـ أنا لم أسبب الأذى لأحد، ولكني جرّبت أني لم أظهر في

الأضواء أمام الناس يوماً إلا ونالني منهم مُصاب. فكيف أسكن إليهم؟

ـ لا تسكن إليهم. بل امضِ في دهليزك إلى الأبد.

ـ أحسنت. ولكن. . فلنعد إلى عشب الليل. .

14

هذا هو الفخّ الذي لم ينجُ منه عابر.

هذا هو النصب المجبول بإغواء يفوق الإغواء في عيني الحيّة.

هذا هو كنز الباديات الذي صيّره التبدّي علامةً للباديات. فمن أين لهذا الصنم هذه الجاذبية؟ أيّ إيماء سكنه فعجنه وشذّبه وسوّاه ونفخ فيه فتنةً؟

في البدايات حيّره القوام كثيراً، وساءل السماء عن سرّ القدّ، وبلغ به الافتتان حدّاً لم يعد يرى معه في الصحراء إلا وثناً، جسداً، حسناء تتغسّل بفيض الأضواء. في أنفاسها تهب ريح، في عودها كبرياء الجلاميد، في دمها سرّ السلسبيل.

كفّ عن الدهش في زمن آخر، وصار السؤال: «ماذا وراء الجسد؟» هاجسه بالليل والنهار. كان يحدّث نفسه في المراعي

بصوت مسموع أن جسد الحسناء يتخفّى فيه سرّ، كما تتخفّى الأسرار في جسد الصحراء. إيماء غامض في القامة يتكلّم بالهول، ولكنه يحجم، ولا يكمل القول. هذا الإيماء اللئيم هو الذي دفعه، زمن الصبا، إلى أن يهجم على صبية ترعى الجداء بجوار المضارب، ويحاول أن ينحرها بالمدية. أصابها بجراح في المعصم والصدر، ولكن نصب الإغواء أفلت من بين يديه ولجأ إلى المضارب. هرع الأنام إلى المكان واستجوبوه استنكاراً للفعل القبيح فأجابهم ببرود لم يعهده أهل الصحراء في ابن الصحراء: «أردت أن أعرف ماذا تخبىء اللئيمة وراء هذا الجسد الذي يشبه جسد الحيّة. انظروا، هناك، في عينيها! ألا ترون ما أرى؟ ألا ترون في عينيها الهول؟» كان يلفظ زبداً، ويرتجف كالمحموم.

15

تدافعت في صدرها أنفاس شهوة يوم ضبطها في طوق أشجار الرتم عارية. لم يفهم ماذا كانت تفعل بطودها الشهيّ، ولكنها كانت تمسك نهديها الصلدين، المرفوعين، قليلاً، إلى أعلى، وتحدّق فيه بعينين غائبتين يطلّ منهما نداء واشتهاء وبسمة خفيّة لم يدرك لها سبباً.

أومأت له أن يقترب فتقدّم خطوة. تحسّس المدية تحت كُمّ جلبابه وبدأ يرتجف. طوّقته بذراعيها فغزته بأنفاسها الشجيّة، فانهار إلى جوارها. تحسّس منكبيها بأصابع راجفة، ثم تسلّل إلى النحر، إلى الصدر، إلى النهد الأيسر. تحسّسه وداعب حلمته فوجدها مزمومة. أخذ النهد في كفّه فوجده في صلادة الصلد. ارتجف. امتدّت الكفّ الأخرى إلى مكمن المدية. سحبها ببطء. حرّرها من الغمد. شقّ بلسانها الشره جلبابه إلى نصفين. لم تكترث. لم تفزع. ازداد النداء في مقلتيها وحشية. تسلّط في العينين البياض، واختفى السواد نهائياً. أطلقت زفيراً كفحيح الحيّة. قبّلت النصل المميت بلسانها. همهمت بانتشاء المجذوبين: «سأريك شيئاً. سأهبك شيئاً. فتعال! تعال!». اقترب بجسمه العاري. لامس صدرها بصدره. أحسّ بالحلمتين المزمومتين تخترقان حلمتي صدره. حاميتان. حاميتان كقطعتين من جمر. التحما. التأما. انهارا على فراش الحصباء في دغل الرتم. علت من صدرها آهات انتشاء فوضع النصل فوق شفتيها الراجفتين. لعقت النصل بلسانها وازداد في العينين الغياب. جرّ النصل ففزّ من الشفة السفلى نزيف بهيّ. أفلت الدم في خيط هزيل، لمع تحت شمس الأصيل بفتنة. سال الخيط وغمر الذقن ثم عاد فانحرف ليتسلل إلى الفم.

برقت الأسنان وعادت تتمتم بالتميمة المبهمة: «سأريك شيئاً، سأهبك شيئاً. فتعال! تعال!». ازداد بها التحاماً. صارا جسداً مزموماً، محموماً، واحداً. جرّ المقبض إلى أسفل. رسم في سيره خطّاً رفيعاً، متعرّجاً، من الدّم. اجتاز الجيد. وسم الجيد البكر بوسم الدمّ. توقّف عند النحر. وشوشت بأنفاسها في أذنيه. هممهت بتعويذة جديدة: «لن تستطيع أن تفعل ذلك أبداً. لن تستطيع. لن تستطيع..». استجمع قواه. استنفر كل عضلة. دفع النصل النهم في النحر الفتّان، ولكن اللسان انزلق في المدّ المحموم، فلحست المدية جلدة النحر الشهيّ ففزّ النزيف. كان رفيعاً وهزيلاً كوسم الشفة السفلى، كوسم النصل على الخدّ والجيد. اشتدّت الحمّى. ازدادت الرعدة. تزلزل بهزّة. أطلق أنيناً شبيهاً بأنين إنسان يعاند النزع الأخير. سقطت المدية، وانهار إلى جوارها كبدن من الصلد. تباهت بانتشاء: «ألم أخبرك أنّك لن تستطيع أبداً؟».

16

«وراء هذه الأكَمَة ما وراءها!».

يروق له أن يردّد في مجالسه مع المماليك ناعتاً أجساد الحِسَان بـ«الجلمود» حيناً، وبـ«طود الفتنة» أحياناً، وبـ«عمود

الطين» أحياناً أخرى، وبـ«الأكَمَة» في أكثر الأحيان. وكان يقسم بأنه سيدفع كل ما يملك، سيدفع عمره الشقيّ أيضاً، لمن يستطيع أن يكشف له سرّ الإيماء الذي يشدّه إلى الحسناء بقيد أفظع من سلسلة طولها سبعون ذراعاً. كان يجرّد المدية من الغمد، ويتأمل لسانها الشره في أضواء نيران المساء ويقول بغموض: «حتى هذا اللسان الذي أرهب الجان لم يستطع أن يدرك السرّ المتستّر وراء الأكمة. يا ربّات الصحراء ما أبعد الكنز، يا أرباب السماء ما أبعد السرّ الذي تخفيه الأكَمَة! هل يجدي نبش الأكمة لبلوغ الكنز؟ لماذا لا ينفع التخريب في إدراك المخبوء؟ لماذا؟». يطوف في عينيه حزن خفيّ، حزن عميق، فيصمت الجلساء إجلالاً للحزن. يعيد المدية إلى الغمد. يأمر بإطفاء النار. يسدل ستار اللثام على عينيه. يلوذ بالصمت أيضاً. يسكت طويلاً. يسكت حتى يتخيّل الجلساء أنه قرّر أن يضع حدّاً للسمر، فينصرفوا. ولكنه يعود إلى الكلام من جديد. سمعوه مراراً يتكلّم بعد خروجهم. يعودون حيناً، ويتظاهرون بأنّهم لم يسمعوا فيذهبون أحياناً. ولكنه لا يسكت إذا لم يعودوا. يستمر في السمر وحيداً. يحاور خلقاً مجهولاً. يسامر الجنّ كما يروق لخبثاء العبيد أن يقولوا: «في رأس مولانا تعيش قبيلة مهولة من الجنّ!». يتندّر العبيد، فيجيبهم العقلاء

وبعض الإماء: «مَنْ منّا لا يؤوي قبائل الجن في الجوف؟ في رأس كل صحراوي قبيلة فظيعة من الجنّ!». وقيل إن المولى سئل مراراً عن المخاطبات، وأنّبه العجوز بطريق الإشارة، وحدّثه عن مساوىء البدعة، ففوجىء الجميع بالجواب: «مع مَنْ تريدونني أن أتحدّث إذا لم أتحدّث إلى نفسي؟ هل تظنّون، أيها الأشقياء، أنكم أكثر إيناساً لي من نفسي؟ هل نفسي إلى نفسي أقرب، أم إلى خلقتكم الكريهة أقرب؟ هل تظنون أنكم أكثر حكمة من القبائل التي أحملها معي في هذا القفص؟». يضرب صدره بقبضته مشيراً إلى القفص، ويضيف: «ماذا تعرفون، أيها البلهاء، عن الأكَمَة؟ ماذا تعرفون، أيها الأدعياء، عن الإنسان؟».

17

الظمأ الوحشيّ لمعرفة ما تخفيه الأكمة دفعه لتجريد الأجساد، واستباحة مفاتنها، فاستنكرت ابنة النبلاء أوّل من استنكر، فأخبرها أن النبل للغربة ضدّ، وأنّ على المرء أن يصمت ويحتمل ما لا يُحتمل إذا ارتضى بالاغتراب وطناً، فكابرت، وعاندت، وتوعّدته بالعار. توعّدته بالعار فتمادى في العبث إمعاناً في إذلالها. فاض بها الكيل، وصمّمت أن تثأر فرفعت عقيرتها بالصراخ ظانّة أن جنونه سيرتدع بالفضيحة،

فعذّبها. عذّبها في المخدع أشدّ العذاب. ابتدع ألواناً جديدة من العبث لم تعرفها في الصحراء مِلل الإنس ولا سلالات الجان، ففرّت. فرّت فطاردها بالسياط، ولعنها في السرّ والعلن، وبعث وراءها العبيد برقعة الفراق.

قيل إنه جازف عملاً بوصية سمعها من عجوز الأدغال تقول إن على الرجل الجادّ ألاّ يأخذ الأمر مأخذ الجد لأن كلّ شيء مباح ما دام اللهو هو ناموس الدنيا، ما دام اللّهو هو الدنيا، فاقترن بتلك المرأة الخفيّة التي تعيد الألسن نَسَبها إلى الجنّ. قيل إنه قال لوليد القدمة في ظلمة إحدى الليالي: «بلغني أن النساء لا تنقاد إلا لذي مالٍ أو سلطان، فما الذي يدعو الجنّية للاقتران برجل لا حول له ولا سلطان، وهي التي تملك من القطعان أضعاف ما أملك؟» فردّ ابن الأبديّة: «بلى. المرأة أضعف مخلوق أمام القطعان والسلطان. ولكنك نسيت أعظم ركن في التميمة. نسيت حجر الزاوية في الثالوث. نسيت اللسان! فما أشدّ بلاهة الناس الذين يتعجبون من امرأة تخرج وراء أولئك البؤساء الذين لا يملكون القطعان ولا السلطان، لأن هؤلاء لا يعلمون أن بين فكّي تلك المخلوقات عضلة تتمدّد، تنزف أطرافها، وقت الحاجة، قولاً أحلى من الشّهْد. اللسان رأس الفخاخ لمن شاء أن يأسر النساء. ولا تأتي القطعان إلاّ

بعد اللسان، لا يأتي السلطان إلاّ بعد اللسان. أمّا من لم يمتلك في الثالوث ركناً من الأركان فبينه وبين المرأة فراق لن يعقبه لقاء أبداً!». ولكن الكثيرين يروون أن العجوز الخالد لم يزيّن في عينيه اللّهو دون أن يحذّره من أهواء النساء، وأهوال النساء، فأعطاه الحقّ في أن يفعل بهنّ ما شاء، ولكنه اشترط عليه أن يكون منهنّ دوماً في شكّ، لأن المرء ينبغي أن لا يطمئن لأمر امرئٍ لا يملك من أمره شيئاً، ولا يعرف ماذا يريد، ولا ماذا عليه أن يفعل بنفسه. وعندما اعترض المولى بالقول إن أهل الصحراء جميعاً لا يملكون من أمرهم شيئاً، ولا يعرفون ماذا يريدون، ولا يدرون ماذا عليهم أن يفعلوا بأنفسهم، أجاب الداهية وهو يحترف جمع الحجارة وتفريقها: «إذن كن من أهل الصحراء أيضاً في شكّ». والحقّ أن المولى لم يكن في حاجة إلى وصيّة جديدة من الحكيم القديم كي يحترس من الكيد، وهو الذي تجنّب الخلق دائماً، وإن فهم أن عليه أن يعامل الأنام كما يعامل الحسناء التي عليه ألاّ يأخذها مأخذ الجدّ، وعليه، في الوقت نفسه، أن يحسب لها ألف حساب. الحكمة تقتضي أن لا نأخذ الأنام أيضاً مأخذ الجدّ حتى لو كانوا أعقل العقلاء، ونخشى كيدهم كما نخشى كيد النساء.

استسلمت الجنّية لألعابه أمداً، واحتملته إلى الحدّ الذي

ظنّ فيه أنه نال السعادة، ووجد، أخيراً، المرأة التي فتّش عنها طويلاً. وكما يحدث دائماً بشأن الفوز، انقلب الأمر ما إن بدأ يتلذّذ، ويتنهّد، ويمشي في الأرض فرحاً، لأن الخفاء لا يحتمل أن تحالف الحظوظ ابن الإنسان طويلاً، فعبست في وجهه كلبؤة، واستلّت من العمود سيفاً في إحدى الليالي، وحاولت أن تسدّد له طعنة مميتة. لم يفهم سرّ الانقلاب المفاجىء، واحتكم إلى الحكيم عقب خروجها من البيت بأيام فقال الداهية: «لا بدّ أنّك أخطأت في أمرٍ بدا لك تافهاً، فاحترس! المرأة كالأسحار، المرأة كخلطة من أخلاط السحر، إذا غفلت في أصغر شأن، أصابك أكبر مصاب، فاحترس!».

فكّر في الخطأ، فكّر في الزلل طويلاً، فطاف في أخيلة مبهمة إبهام الظلمات، ولكن النبوءة لم تأتِ، وكلمة السرّ لم تقل أكثر مما ردّده الدهماء عندما قالوا إن بنت الغرباء سليلة الجنّ، وهي ليست الوحيدة التي تنتمي إلى هذه القبيلة، ولكن كل امرأة هي جنّية.

18

يسدل الستور ليتأمّل الخروج.

صنع لمدخل الخباء حجاباً، وطوّق المخدع بحصن آخر

من أكثر الأستار كآبة، وتعمّم بلثام السواد، ولم يكتفِ، فعصب العينين بخرقة كثيفة دكناء. فعل ذلك ليمضي بعيداً. فعل ذلك ليتوغل مسافة أبعد. فعل ذلك ليتنزّل إلى دهليز الحقّ، ويمعن البصر في فضاء لا يحجب فيه ضوء الزور أنواء النبوءة. لو كان الضوء ضوءاً حقيقيّاً لما احتجبت بخروجه النجوم. لو كان ضوء الأنام ضوءاً حقيقيّاً لأضاء الدهليز الذي دفع بالخلق إلى الصحراء ليحدّقوا ويبتهجوا بمرأى الظلال دون أن يتخيّلوا أنهم ازدادوا، بهذه الرؤى، عماءً على عماء. وسوف تصير لهم عدوّاً لو سمعوا منك النداء. ستصير لهم عدوّاً لو أخبرتهم بأن السبيل خدعة، وخلاء الباديات مكيدة، وما على الداهية إلاّ أن يعود على عقبيه، وينكفىء إلى الوراء، إذا أراد أن يدرك سرّ التيه حقّاً، إذا أراد أن يكتشف الكنز الذي تركه خلفه ظانّاً أنه، بسعيه المحموم، يمشي إليه.

بلى. السرّ في الدهليز.

الكنز في الظلمات.

الكنز، دائماً، في الظلمات.

منْ رأى كنزاً خارج الظلمات؟

من اكتشف كنزاً بعيداً عن أسافل العتمة؟

من نال كنزاً من يد ضياء الزور؟

ألن يكون هذا برهاناً حاسماً في شأن خدعة الضوء؟

فتّش عن الكنوز، دائماً، في أبعد ركن. في أكثر الأوطان بُعداً، وعمقاً، وظلاماً. انكفأ على نفسه كالقنفذ، ومضى في الحُجب بعيداً جداً، لأنه كان يفتّش عن علّة الخروج أصلاً.

ابتعد، وانقطع، واعتزل، وسمل المقلتين بالأردية، ليعيد البصر إلى عين أفسدها نور الزيف، فعجزت عن رؤية النّور الحقيقي. اعتادت ضياء الخلاء طويلاً فضلّت السبيل إلى النور الأول الذي بعث بها إلى الحياة رسولاً. أضاعت الرؤية، فأضاعت النبوءة. أضاعت النبوءة فأضاعت الرسالة. فلا بد من العماء كي تعود إلى جبلّتها الأولى، لا بدّ من العماء كي تستعيد سيرتها الأولى. لا بدّ من العماء كي تُبعث، كي تولد من جديد. ما أشجع حكيم القبيلة الذي سمل عينيه ليرى ما لا تراه القبيلة، ليرى ما يجب أن يُرى، لا ما أُريدَ له أن يراه. صاح في القوم يوم حرق مقلتيه بالنّار: «أنا سعيد بعمائي، لأنّني بفضله استطعت أن أرى ما لا ترون، وأحْيَا لا كما تَحْيون». لقد أدرك أن رؤى الكلّ عماء، ما يراه الكلّ عماءً هو الرؤية.

ولكن.. أي خروج أراد بالخروج؟ هل الخروج من بطون الأمهات إلى وحشة الخلاء؟ أم أراد بالخروج الخروج الأوّل الذي سبق كلّ خروج؟ أليس هو الخروج المبهم الذي كان له

الخفاء سلفاً؟ نعم. لا بد أن الطريدة تحوم في مكانٍ ما في هذا الربع. لا بد أن يكون الكنز قد دُفن في بقعة ما في هذه الناحية. فعندما يُذكر الخفاء فلا بد أن تقشعر الأبدان، وتوسوس الأفئدة، وتشتدّ الحمّى، لأن النبع الذي طلبه العابر الأبدي منذ الأزل، قد صار في مسافة أقرب من حبل الوريد، وما على الظمآن الخالد إلاّ أن يتحسّس، ويتشمّم، ويستنفر ما ظهر وما بطن، لأنه جاور الخطر. هيء هيء.. لأنه سيدرك اللغز اللئيم. هيء هيء.. لأنه.. سيقف، بعد طواف وشقاء وجنون، فوق البذر الذي أوجد الخطأ.

شاهد انبثاق الجِداء من بطون المعز مراراً. انبثاق موجع، قاسٍ، وقبيح. فأي بهاء يجده البلهاء في نداء الاستهلال؟ أيّ فرح يراه الغوغاء في استغاثة الميلاد؟

19

في إحدى الليالي زاره الحكيم، فتحدّثا عن الأقنعة.

قال سليل الأدغال إن قبائل الجنوب الأقصى استعارت القناع من أهل الصحراء. روى سِيَراً عن هجرات الجفاف القديم الذي عمّ الصحراء، وتحدّث عن مسيرة القناع إلى الجهات الأربع، ثم انتهى إلى الحديث عن الكيفية التي بلغت فيها لوازم

التخفّي تخوم الجنوب، فاستمرأتها القبائل، وتفنّنت في صنعها، واستقطعتها من جذوع الأشجار، وصقلتها، وشذبتها، ووسمتها بتمائم الأجداد، وحفرت في أخشابها مواقع للعيون والأفواه، قبل أن ترفعها إلى الرؤوس، وتشدّها إلى الوجوه. قال أيضاً إن الأقنعة في أصلها الصحراوي كانت قطعاً لميسة استُقطعت من جلود الحيوانات البريّة كالثيران وأبقار الوحش والودان والغزلان والصلول. ولم تُستبدل بأخشاب الشجر إلاّ بعد دخولها بلاد الأدغال بزمن طويل. ويُقال إن السحرة كانوا أوّل من نبّه إلى مزايا القناع عندما اكتشفوا حاجة الإنسان إلى التستّر، وقرروا أن يشبعوا هذه الحاجة بسنّ ناموس يوجب ارتداء القناع على كل من بلغ سنّ الرشد. ومع توالي الأزمان وجدوا في الناموس خصالاً سحرية أخرى، فحوّلوا الخصال إلى حِيَل عُرفت بـ«حِيَل التخفّي»، فصار الساحر لا يخفي عن الناس وجهه بالقناع وحده، ولكنه يتخذ اسماً مستعاراً، إمعاناً في التخفّي، ويسكن ظلّه اعترافاً بخطورة الظهور أمام الناس في جسمه الحقيقي.

استمع إليه ليلتها غائباً. تساءل بعد صمت طويل:

- ألا ترى في ارتداء اللثام فراراً من ضوء الزور؟

- لا أرى، يا مولاي، إلاّ ما ترى.

- أليس في اتخاذ القناع حنينٌ إلى الوطن الأوّل الذي أضعناه يوم وُلدنا، ونحسّ بوجوده جميعاً في مكانٍ ما خارج الصحراء، ولكننا لا ندركه، ولا نعرف الطريق إليه؟

- أحْسَن مولاي بناء العبارة فيما قال!

- لماذا لا تعترف معي، أخيراً، أن الظهور هو الجُرْم؟

- أحسنت. أردت أن أقول هذا منذ أقدم الأيام، ولكن الشجاعة لم تكن من خصال العبيد يوماً!

- ألن يجد الحكيم، بعد هذه القناعة، مبرّراً لعشقي لظلمات الخفاء؟

- كيف لا أجد لمولاي مبرراً في تعلّقه بالظلمة إذا كان الخفاء هو الوطن الأوّل؟

تمدّد. استرخى. ردّد بشجن:

- أحسنت. أحسنت. أنا الذي سيستعير منك اللفظ ويقول لك: أحسنت!

20

ينفي الكثيرون الزعم القائل إن صاحب الظلام بدأ يروّض اللحون، ويقوّم الأشعار في مرحلة سبقت اقترانه بالحسناء

الزنجيّة، ويؤكدون أن افتتانه بتلك اللغة المجهولة لم يبدأ إلاّ بعد القران بزمن قصير. ولمّا كانت القبيلة قد عرفت، من قديم، أن الإنسان لا يولد شاعراً لأنه لا يأتي إلى الصحراء عاشقاً، وأدركت أن هذا الجنون الجميل (الذي أطلقت عليه الأجيال اسم «الشِّعر») لم يستبدّ بمن لم تكن له المرأة سبباً، فإن القوم ما لبثوا أن أيقنوا أن المريد قد تعشّق يوم سمعوه يقول شعراً. وككلّ فرسان الوطن الصحراويّ المجيد لم يتباهَ بقول الأشعار، بل أخفى الأمر على عادة الأسلاف النبلاء، ولم تُعرف هوية القصائد (التي نظمتها المغنيات في أنبل الألحان) إلاّ عندما ضبط فيها الدهاة ذلك الإيحاء الكريه الذي يمدح الكآبة، ويتغنّى بالليالي الظلماء، ويمجّد حُسن الخلاسيات والسوداوات. وكعادة الشعراء في كل قبائل الوطن المجيد لم ينفِ علاقته بالأشعار عندما نقل إليه العبيد الشائعة، فرمقهم بخبث قبل أن يمدّ أصابعه النحيلة ليسدل طرف اللثام على عينيه.

ولكن القبيلة ما لبثت أن أيقنت أن افتتانه بسليلة الأدغال أمر لا يحتاج إلى الشعر. ذلك أن العاشق الذي لم تستَحْيِهِ فعلته، ولم يلتفت لاستنكار العقلاء والدهماء على السواء يوم ارتضى أن تشاركه المخدع قرينة لا تشاركه جلدته ولا سلالته، مضى

في استهتاره إلى أبعد، فرافقها للخروج إلى الوديان المجاورة أثناء الجولات الليلية، ودلّلها في الملبس والزينة، فكادت نبيلات القبيلة يختنقن بالعبرة والحقد وهن يشاهدن أَمَة الأمس ترفل في لحافٍ أزرق نفيس، ترتدي ثوباً فضفاضاً منسوجاً من كتّان «آلَشُّو» المشبع بأصباغ النيلة الأكثر زرقة من اللحاف، تُرصّع صدرها بقلادة فضيّة مرصوصة بمثلثات الربّة «تانْ يَتْ» الموشاة بنمنمات أمهر حدادي بلاد «آير»، تطوّق المعصمين بأساور فضّية كثيفة منمنمة أيضاً بتمائم مجهولة توارثها الصُنّاع عبر أجيال وأجيال. ولا تكتفي الشقيّة بهذا الاستفزاز، ولكنها ترفع يد الجرم لتصبغ شفتيها المفلطحتين بزواق «تيفَتَسْتْ» المقدّس الذي ظنّت بنات النبل أنه لم يُستخرج من بطون الأرض، في الزمن القديم، إلاّ ليستقرّ على شفاههن وحدهن ليكون لهن علامة تميّزهن عن الجواري والغواني والإماء ونساء الأسلاب. وعندما لا يجدن سبيلاً يشفي غليلهن يُقرِئْن أولادهن كلاماً لتعيير من كان سبب شقائهن، فيخرج الصغار لترصّد سيّد الظلمات، فإن ظهر ردّدوا له بأصوات جماعية: «إذا قَبِل النبيل اقتسام الفِراش مع بنت الأدغال فسوف يرى النبيل يوماً ابنته تتقاسم مخدع القِران مع ابن الأدغال. أم سليلة السحرة هي التي دسّت لابن القبيلة سرّاً أنساه وصايا الناموس؟». لم تكتفِ النساء

بدفع الصبيان لمطاردته وتذكيره بالمصير البائس الذي ينتظر ذريته، ولكنهن ما لبثن أن وشوشن لأزواجهن في خلوة المخدع، فجاءه أكثر العقلاء دهاءً وعقلاً ليعيدوا على مسمعه ما أقرّه الأسلاف في الناموس. بعضهم سخر وشمت، وجلّهم حذّره وطلب منه أن ينحر القرابين حتى لا تأتي له القرينة المشؤومة بسلالة سترفضها القبيلة، ولن تجد في الوطن الصحراوي المجيد غير المنفى. أمّا الزعيم فقد بعث إليه العرّاف رسولاً. قال الزعيم على لسان العرّاف: «لا أعرف ما الذي يحملُك على أن تقترن ببنت الأدغال. إذا وجدت في هذه الملّة ما لم نجده، فاعشقهنّ خِفْيَة كما اعتدنا أن نفعل جميعاً!». ابتسم للعرّاف قبل أن يسدل ستر اللثام على عينيه ويطلب من الرسول أن ينقل جوابه للزعيم: «العشق، يا مولاي، كالعلل، كالأوبئة، سرّ مجهول، يصيبنا فلا نملك لردّه سبيلاً. نعم يا مولاي. العشق داء لا تنفع في مداواته تمائم السحرة، ولا عقاقير العطارين!».

ولكن زلزلته قشعريرة، لم يدر لها سبباً، يوم انطلقت من خباء الحُبلى زغرودة، وأقبل عليه الخدم لينقلوا له البشارة بميلاد الأُنثى!

21

سمع لغواً كثيراً يتحدّث عن الشماتة، ولكنه لم يذق طعم هذا السُّمّ إلا في ذلك الزمان.

رأى هذا الغول في العيون.

رآه في عيون العقلاء. رآه في عيون النساء. رآه في عيون الدهماء. رآه في عيون الصبيان أيضاً. والمدهش أنه لَم يرَ الإيماء المميت في تبرّم أو عبوس أو تأفف، ولكنه رآه في البشاشة، في مراسم التبجيل، في الابتسام اللئيم. كلّهم يبتهجون ساعة اللقاء، أو يفتعلون الفرح افتعالاً، ويجرّون على العضلة الشقيّة أحلى الكلام، ولكن الحدقة الخؤون تقول كلاماً آخر. العين تتحدّث بسرّ آخر أخفاه اللسان. تتحدّث بأمر آخر سمّوه طبعاً، ذلك أن العين هي العضو الوحيد الذي لا يكذب كما تكذب عضلة السوء. كلّهم قالوا له في العيون: «كلّنا حذّرناك من العار المنتظر، ولكنّك كابرت واستسلمت للهوى. فادفع، الآن، الثمن يا أشقى الأشقياء!». كلّهم قالوا ذلك. كلّهم قالوا أسوأ من ذلك. كلّهم جاهروا بالكراهية في العيون فكرهِهم، وأيقن أنه لم يخطىء أبداً يوم تجنّبهم، وابتعد عن محافلهم، وتشاءم حتى من ملاقاتهم.

اعتصم بالخباء، ورمى بنفسه إلى ظلماته فزاره حكيم الأدغال بعد منتصف الليل. حدّثه عن قساوة الشماتة، وتساءل عن سرّ هذا الدّاء، فتكلّمت الأجيال على لسان الإنسان الخالد: «صدقت. الشماتة داء لم يجد السلف لدفعه حيلة. هل تدري لماذا؟ لأنها ليست مركّبة في الجسد وحده كما تتركّب فيه الشهوة، ولكنها كامنة في النفوس أيضاً يا مولاي». سكت زمناً. تفكّر. قال بلهجة غائبة: «ما أقبح هذا! لماذا تفتننا الإساءة إلى هذا الحدّ؟ أي سرّ في الشرّ؟ ألا يوجد إنسان واحد في هذه الصحراء لم يولد وفي نفسه كراهة أخيه الإنسان؟». هتف الشبح الملفوف في الظلمة بانتشاء أهل الوجْد: «ها أنت تتحدّث عن الكراهة. فليعلم مولاي أن هذا المخلوق لم يأتِ إلى الصحراء إلا ليأتي أمر الكراهة. هذا سرّ ظمأ هذا الكائن الدائم لفعل العدوان». تساءل المولى: «هل تريد أن تقول إن العدوان في نفس الإنسان جبلّة مثَلُه مَثَل الشماتة؟». أجاب الشبح في الحال: «العدوان في جوف الكائن جبلّة، والشماتة للعدوان ظلّ. العدوان يا مولاي، أيضاً ليس غاية الظمآن، ولكن غاية الظمآن الفوز بالموت!». هتف المولى بدهش أصيل: «الفوز بالموت؟». أوضح الشبح: «الظمآن يا مولاي يدرك من حيث لا يدري أن الاعتداء أمر يوجب القصاص من

الطرف الذي وقع عليه العدوان، ومن حق الطرف الثاني أن يردّ دفاعاً عن النفس. والردّ في الغالب يأتي مضاعفاً لأن الناموس علّمنا أن البادىء بالعدوان دائماً أظلم!». سكت المولى. تكلّم بعد قليل بلهجة فضول: «ولكن.. أما من سبيل لإصلاح الأمر؟ أما من سبيل لإيجاد تفسير لهذا الجنون؟ إذا كان الشقيّ يعرف أن الشرّ سيعود إليه مضاعفاً، والسحر سوف ينقلب على الساحر، فما الذي يجعله يندفع إلى التهلكة؟». أجاب الشبح ببرود الكائنات الخالدة: «لأن التهلكة، يا مولاي، هي الغاية. لقد اتفقنا يوماً أن الإنسان وُلد وهو يحمل بين جنبيه عداءً لأخيه الإنسان. واليوم اكتشفنا أن ذلك العداء الذي يخفيه هذا المخلوق لأخيه ليس إلا حيلة صغيرة غايتها الأبعد هي إنزال العدوان على نفسه هو. كلنا نعرف أن الشقيّ مخلوق ضعيف، أضعف من أكثر المخلوقات ضعفاً. يجب أن نعترف لأنفسنا أن هذا ضعف في الجبلّة أيضاً. هذا الوهن الأصيل هو ما يمنعه من القيام بما يجب أن يقوم به إزاء نفسه..». هتف المولى مقاطعاً: «وما الذي يجب عليه أن يقوم به إزاء نفسه بحق الربّة «تانِيْتْ»؟». أجاب الشبح ببرود أكبر: «ما يجب أن يقوم به إزاء نفسه هو نفسه ما أراد أن يفعله به الآخرون عندما بادرهم بالعدوان. أردت أن أقول لمولاي إن هذا المخلوق الذي خانته

شجاعته لم يرد في يوم من الأيام إلا التهلكة!». صاح المولى باستنكار: «التهلكة؟ هل قلت التهلكة؟ أيعقل أننا لا نأتي إلى الصحراء إلا للفوز بالتهلكة؟». أجاب الشبح الملفوف في ظلمة الليل بهدوء عميق: «فليعلم مولاي أن كل ما نفعله، منذ انبثقنا من الخفاء، غايته العودة إلى الوراء، إلى الخفاء الذي أنجبنا: عشق النساء، التغنّي بالحنين، قول الأشعار، الخروج إلى الغزوات، استعداء القرناء. لا نبغي، في الحقّ، من هذا كلّه إلا تحقيق أمر واحد نحاول أن نخفيه عن أنفسنا: الفرار من الصحراء، والوصول إلى البرّ الأول. إلى الخفاء. هذه العودة لا تتم يا مولاي إلاّ بما اعتدنا أن نسمّيه تهلكة..». عمّ سكون. دام السكون طويلاً. أضاف الشبح بلكنة غريبة: «تعلّق مولاي بالظلمات ذهاب في هذا السبيل. عشق مولاي للعزلة هو أكبر دليل. ظننت أن مولاي، بهذا، قد سبق الجميع إلى السبيل فسار في طريقه وحيداً..». ردّد المولى بصوت الذهول: «عجب! لم أظنّ يوماً أن بوسع إنسان آخر أن يحدثني عن نفسي بأكثر ممّا أستطيع أن أتحدّث عن نفسي. لم أظن يوماً أني غريب عن نفسي إلى هذا الحدّ. لم أظن يوماً أن الشماتة حيلة لاستفزاز الخصوم، وأن استفزاز الخصوم حيلة للحصول على الجزاء الذي لا يُعلى عليه جزاء: التهلكة». همهم المولى في

الركن الآخر من الظلمة: «ظننت دائماً أن هذا أمر صغير الشأن. ظننت دائماً أن ليس في الصحراء أمر أكثر يُسراً من نيل التهلكة!. وسرّ عظمتها، يا مولاي، في أننا لا نستطيع أن نوقعها بأنفسنا».

تنزّل سكون.

بين حين وحين ارتفع صوت في ركن من أركان الظلمة مردّداً كلمة واحدة كأنها تميمة تُقرأ على رأس مريض يعاني أوجاع النزع الأخير: «عجب! عجب! عجب!».

22

لم تجد القبيلة في بنات الأدغال بهاءً، ولم يرث أهل الصحراء عن أسلافهم مديحاً لسيماء السواد، ولكنها أُوتيَت حُسْناً خفيّاً.

لم يكن الحُسْن الخفيّ هو ما استهواه في الفتاة عندما أدخلها إلى بيته أوّل مرّة (لأنّه لم يكن ليدرك ذلك السرّ منذ البدء، حيث إن ذلك الحسن الحزين، الغامض، ينتمي إلى الأشياء التي لا نكتشفها إلا إذا ألفناها طويلاً، ولا تتبدّى لنا إلا إذا انقطعنا لها وسخّرنا أنفسنا إليها)، ولكنه افتتن ببشرتها

اللميسة، الكحلاء، وانقاد وراء بسمة لها جذّابة تفضح ثغراً مرصّعاً بأدق وأنصع أسنان رآها بين شفتي حسناء. ربما لم تكن تلك الأسنان سوى تلك الإشارة التي يتحدّث عنها العرّافون كثيراً، فيقولون إنها إيماء صغير لا يُلتفت إليه رغم أنه يخفي شرراً لأمر جلل كفيل بأن يزلزل الأرض، أو يبيد الصحراء، أو يعيد الشمس إلى الوراء. ولكنها زلزلته أيضاً، وشدّته بسلسلة أقوى من سلاسل الحديد. كان للأسنان المصفوفة في جوف الثغر سحر القبس البكر وهو يشقّ بضوئه السماوي الخجول قوس الأفق، يختلس الوميض المطفأ من مملكة المجهول، يتسلل بين الجرمين المتلاحمين خِفْيَةً، ليدسّ سرّه المستعار من أوطان الخفاء بين جسدي العاشقين الحميمين، فتتبدّى لهما السوأة، ويعرفا أنهما ينامان عريانين، فيفزعا، ويفزّا، وينفصلا، ويبتعدا، يبتعدا، ويتباعدا. يبدأ التباعد بطيئاً، مريباً، محموماً، قبل أن ينسلّ الجرم السماوي أخيراً، ويعود إلى عليائه في السماء، وتسترخي الصحراء لتهجع وتتمدّد وتغيب في امتداد الصحراء. يتمخّض الأفق، ويأتي من الخفاء لدنيا الباديات بوليد بهيّ، تستيقظ احتفاءً بميلاده الكائنات كلّها؛ يزقزق الطير، ويهجر النعاس جفون الخلق، وتتململ بذار «الترفاس» في المخابىء، وتتوثّب الأنعام للانطلاق في السبيل، فيطلّ من

شعاف القوس المزموم رأس وليد لعاشقين خالدين سمّاه الأنام في لسانهم: فجراً!

بين رجفة الشفتين البضّتين، وانفراجة الثغر المتوترة، وانفلات الوميض في الأسنان، يندفع الموّال، فتنحبس الأنفاس، ويتصنّت أهل الخفاء، ويتململ السرّ في المجهول، فتضرب الجرم زلزلة، ويتوثّب في الجوف هوى أكبر من الهوى، ويحترق البدن باشتهاء أنبل من الشهوة، فيقبل الحنين، ويفزّ من المقلة دمع النار، لأن المارد الحزين، لأن الكائن السجين لا يجد العزاء، فيفرّ من الأشجان بالبكاء.

23

ولكن ما علّة قِصَر عُمْر الهناء؟ لماذا لا يمهل الخفاء مَرَحاً، ولا يطيل للسعادة زماناً حتى لو كانت سعادة في حلم يقظة؟ لماذا يعبر البهاء، ولا يمكث في الخلاء إلا كلّ أمر ذميم؟ هل العلّة في حسد الخفاء لملّة الأنام كما يقول الكهنة؟ وهل حسد الأنام للأنام مستعار، في أصله، من هذا الحسد الشائن الذي عرفه الأسلاف كطبع أصيل في جبلّة الخفاء فأورثوه للأخلاف في الوصايا التي تحذّر من المشي في الأرض فرحاً؟

حسدوه أيضاً، فدسّوا للقرينة في الطعام سحراً، أو دنساً،

أو سُمّاً. غزاها الشحوب في الصبح عقب عودتها في الليلة التي سبقت ميعاد سمر اجتمعت فيه النساء، وغنّت الصبايا احتفاءً باكتمال القرص، وتحوّل القمر بدراً.

استيقظ في الفجر فسمعها تتقيّأ خارج الخباء. خرج إليها. وقف فوق رأسها. داعبها بسؤال: «هل استمرأت الحسناء الأمر وقررت أن تهب القرين حسناء صغيرة أخرى؟». ابتسمت. تضاعف الشحوب في وجنتيها. انحنى فوقها. تحسّس الجبين. كان يشتعل كقطعة جمر. انطفأ البريق في العينين. اختفى الألق في البشرة. فقدت الشفتان الممتلئتان الفتنة. غاب السرّ من الثغر، فلم تسطع الأسنان بقبس يبشّر بميلاد الفجر.

استدعى الخدم.

جاءت إحدى الإماء بالعقاقير المجفّفة. وهرعت أخرى إلى الجارة وأتت من هناك بصرّة من الشيح. ألقت حفنة في جمر الموقد فاختنق الخباء في سُحب الدخان. أحسّ بالدوار فخرج إلى العراء. أدركته الأَمَة العجوز بملامح صارمة. ذلك القناع الذي تتقن العجائز التستّر وراءه عندما يجاهدن في إخفاء سرّ. مشت إلى جواره باكتئاب. قالت بغموض:

- يجدر بمولاي ألا يذهب بعيداً.

تفحّصها باهتمام. ولكن الحصن الذي أنزلته على وجهها كان منيعاً. سأل:

ـ ألا ترين ما أرى؟

أجابت ببرود قاسٍ:

ـ من أين للأَمَة أن ترى ما يرى المولى؟

ـ ظننت أنها تنوي أن تهبني طفلة أخرى!

سكتت. ازدادت انحناءً. ازدادت على الأرض انكفاءً. قالت بالبرود نفسه:

ـ يجدر بمولاي ألا يستهين بنوبة القيء إذا صاحبها شحوب الموتى!

ـ شحوب الموتى؟!

ـ يجدر بمولاي أن يسرع في طلب الساحر!

ـ الساحر؟

لم تجب. هزّت رأسها هزّات متتالية، بلهاء، فانزلق لحافها عن رأسها، فتبدّت لفافات الشعر المفلفل الموشّى بالشيب. وشوشت بصوت كالهمس، كإيماء النبوءة الشريرة:

ـ هذا إذا لم يفتْ الأوان.

توقّف. ردّد بذهول:

ـ . . . إذا لم يفت الأوان؟ لماذا. . لماذا لا تنسين لغة التورية ولو ساعة، وتخبرينني بمخاوفك؟

همهمت ببرود:

ـ لقد أخبرت مولاي بكلّ شيء!

ـ هل أنتِ على يقين من أنه سحر؟

ـ يقين السحر عند الساحر. .

ـ ما الذي يحملك على هذا الظنّ القبيح إذا كنتِ تعرفين أنّك لم تُؤتَيْ من علم السحر إلاّ قليلاً؟!

ـ القِدْمَة يا مولاي. الشيب الذي تراه في رأسي هو علامة علمي القليل. .

ـ تكلّمي أخيراً: هل رأيت شيئاً، أم هي ظنون في ظنون؟

ـ بعض الظنّ علامة. .

ـ هل قال لك الظنّ إن في الأمر يد سوء؟

ـ لا داء إلاّ ووراءه يد سوء.

ـ صدقتِ. ولكن هل بينها وبين أحد عداوة تبيح هذا العمل الجليل؟

ـ وهل في دنيانا غير العداوات؟ هل نسي مولاي كيد النساء؟ هل نسي مولاي الغيرة؟ هل نسي مولاي حسد الحسّاد؟

ـ صدقتِ. ولكن.. هل يُعقل أن يبلغ الأمر بالحسد حدّاً يبيح لصاحبه أن يضع سُمّاً في طعام، أو يدس الأظافر في اللحوم لإنزال «ضربة المخلب» بالخصم؟

ـ وهل في الدنيا، يا مولاي، شرٌّ يفوق الحسد؟ ألا يدري مولاي أن الآباء وجدوا دواءً لكل شرور الصحراء، ولكنهم عجزوا عن مداواة الحسد.

ـ عجب!

ـ يُحسن بنا أن نعود لاستدعاء الساحر!

عادا.

اقتربا من الخباء فخرج لملاقاتهما اثنان من الخدم. قالا بصوت واحد إن المسكينة بدأت تتقيأ دماً جزيلاً.

24

تغيّبت القرينة. فاحتجب أزماناً.

اعتصم بالخباء، وغرق في الظلمات.

أمر بنصب خباء آخر داخل الخباء، ونسجت له الإماء

بطانات دكناء داخل الخباء الثاني، وقال إنه لا يريد أن يخرج إلى خلاء لا وجود فيه إلاّ لشامت في مصاب، أو حاسد على نعمة، ولو امتلك سلطان الإنس أو انقادت لمشيئته جُنْد الجنّ، لخسف الأرض بالملّة الكريهة، وقطع دابر الخلق من مملكة الصحراء. ثم صام عن الكلم زمناً آخر، وعندما تكلّم أخيراً، لم يكلّم أحداً إلاّ من وراء حجاب.

ويذكر الخدم أن أوّل أمر سمعوه من مولاهم بعد ذلك الصمت الطويل، كان أمراً باستدعاء عجوز الأبد. أقبل الحكيم في أمسية من تلك الأمسيات التي يتبدّل فيها مزاج الصحراء، فيتنفّس الشمال برياح بحريّة تندفع عبر الحمادة العارية محمّلة ببرودة انتظرتها الكائنات كما تُنتظر النبوءة، فتتسكّع في السماء الجرداء أشباح سحاب لم يروه طويلاً، فيدبّ في صفوف الأنعام قلق خفيّ، تتوقف الجداء عن ثغائها اللجوج؛ وتشرئبّ أعناق المعز إلى الأعالي، وتتوقّف عن الاجترار؛ تتحفّز الجمال، وتتعلّق بجهة الشمال في خشوع وتوجّس وارتياب. لا يطول انتظار النبوءة، لأن الأفق لا يلبث أن يشتعل بالبروق معلناً بدء التبدّل في الفصول، فيفوح الخلاء الظمآن برائحة غامضة: مزيج من الروائح: طين، وملح، وتراب نديّ. ولكن أهل الخلاء اعتادوا أن يكتفوا من أوّل الغيث بالإشارة، لأن

الاستهلال الشماليّ الخفيّ يفرغ حمولته عادةً قبل أن يبلغ أعماق الصحراء.

في أمسية تبدّل الفصول أقبل سليل الأدغال على مولاه الذي غاب وتغيّب فصار جزءاً من مملكة الخفاء.

قيل إنه جالسه من وقت الغروب، فلم يكلّمه إلاّ بعد منتصف الليل. قالوا إنه نسي الكلام، وعضلة الفكّين ضلّت السبيل إلى لغة الخلق، وقال آخرون أن لا أحد يشمئز من اللغو أكثر من إنسان ذاق حلاوة السكوت.

ولكن الخدم لم ييأسوا.

حاموا حول الخباء الخارجي، ودسّوا رؤوسهم في ثنايا اللفائف الداخلية، ليتسمّعوا. تسلّى بعضهم بالتحاور في الزوايا همساً لقهر الوقت، وقرّر آخرون أن يجربوا البقاء في العتمة فسكتوا، وهاموا بعيداً حتى نسوا أنفسهم فناموا.

وحتّى أولئك الذين تهامسوا وصبروا على الوقت بالوشوشات، استغفلهم سلطان الكلم، فنسوا أنفسهم، وغفلوا عن سماع كلمة المولى الأولى بعد سكوته الطويل.

فئة قليلة جاهدت، واستماتت، فسمعت سرّاً لا سبيل إلى إخفائه، برغم أنها ظلّت مجهولة أسوةً بكلّ فئة أذاعت على الملأ سرّاً.

هؤلاء قالوا إن الرعد دمدم، في البُعد، أوّل مرّة ذلك العام، ما إن تكلّم المولى.

25

في ركن من أركان الظلمة تكلّم المولى:

- هل يستحقّ الإنسان أن يفوز بكنز كان لإنسان غاية ميلاد؟

- كيف نعطي الحقّ لناكر الإحسان في أن يستولي على حقّ كان لإنسان آخر غاية ميلاد؟

- أحسنت! خذلني البلبال وخطف من لساني العبارة التي لم يكن بوسع أحد أن يعيدها إليه غير حكيم لا يجد بلبال الدنيا إلى قلبه سبيلاً. نكران الإحسان هو ما كنت أبحث عنه عندما تحدّثت عن أحقية إنسان في أن يستولي في ساعةٍ على ما أفنى إنسان آخر حياته كلّها لنيله، فهل من الفضيلة حقّاً أن أهب للمخلوق في يومِ قربانَ العمر كلّه وأنا أعْرَف الناس بأن المخلوق، ككلّ الخلقِ، كائن جاحد؟

- ذلك، يا مولاي، لا يجوز حتى لو لم يكن المخلوق جاحداً، فكيف إذا كان الجحود له علامة؟

- نشقى ونكابد الأوجاع منذ نداء الاستهلال، ولا يتخلّى عنّا

هذا الشؤم إلاّ في اليوم الذي نهجع فيه تحت كوم الحجارة لننام بجوار الأسلاف. نكابد كل هذا الشقاء لكي نضع ذلك الحمل الذي جئنا إلى الصحراء محمّلين به كنبوءة العرّاف، كوصية الرُّسل، فنتحايل، ونستنزف أنفسنا، ونحمل فوق عاتقنا أكثر مما تطيق طاقاتنا، لكي نبلغ بالحمل النفيس برّاً آمناً نودعه فيه. فلا يتوقّف دورنا الأمومي عند هذا الحدّ، ولكننا نطوف حول الكنز، نحنو عليه حنوّ الأم على وليدها الرضيع، نحميه من شرور الظهور بكل حيلة، ونكتشف ساعتها جرمنا، لأننا ظننا أننا تحرّرنا من الحمل عندما أخرجناه إلى دائرة الصحراء، في حين أن الخطر عظم وازداد، لأننا كنّا نستطيع أن نضمن الحماية لحمل هو جزء منّا، ما دام كامناً فينا، ولكن الشكوك تعقب أوجاع مخاض ظنناها آلام خلاص، ثمّ يبدأ العراك بعد الانفصال، بعد ميلاد الجنين، لأن علينا أن نتولّى أمر طرف آخر، بعد أن كنّا مع ذلك الطرف كلاً واحداً، فيتضاعف البلبال، وتعظم الأخطار، فيصير الشقاء لنا قريناً يرافقنا طوال السبيل، ولا يتركنا إلاّ ساعة البَيْن.

- عمل كريه في سفر بلا معنى!

- السفر بلا معنى، ولكن الحمل هو الذي يهبه المعنى. هل

تظنّ أن المخلوق الشقيّ يستطيع أن يطيق السبيل الصحراوي ساعة واحدة لو لم يكن له الحمل الخفيّ عزاءً خفيّاً؟

- صدق مولاي. سرّ السبيل من سرّ الحمل.

- هل تريدني أن أخسر الطريق من أوّله إلى آخره بضربة هوى؟

- الحقّ أنّي لا أفهم..

- ألا يكون تسليمي في حملي وتركه أمانةً، في يد من لا أمان له، حمق من يخسر السرّ كلّه بإرادة الهوى؟

- ما أشدّ حمق مَنْ يأمن مَنْ لا أمان له!

- كنت أعرف أني لن أختلف مع حكيم تولّى أمري في المهد، وزرع في صدري نصيباً مما وهبه له الخفاء.

- سمعت هذا من أب مولاي، سمعت هذا من جدّ مولاي، سمعت هذا.. هذا يكفيني. هذا هو الوفاء. هذا هو الفرق بين ما نسميه وفاءً وبين ما نسمّيه نكراناً للإحسان..

- قطعنا شوطاً ونحن نحوم حول موقع الكنز، فهلا أذن الحكيم بورود البئر لنرتوي أخيراً؟

- بعيدٌ، يا مولاي، ما كان بعيداً..

- لا بُعد يبعد عن حكيم، ولا طِلَّسْمَ يخفى على عرّاف.

- لو تنازل مولاي وأومأ لي بكلمة السرّ.

ـ أردت أن أقول إن الوليدة التي تركتها القرينة في الخباء المجاور هي العبء الذي حملته في المجهول، وجئت إلى الصحراء كي أودعه أحضان الصحراء من بعدي. فهل يليق بي أن أستهين بالأمر، وأضع الصبية في أحضان مخلوق لا يؤتمن على جدي أو معزاة؟

ـ هذا مُنكر!

ـ أردت أن أقول إن على من أراد بذريته شرّاً، أن يرميَها في أيدي الأغراب. .

ـ ما أنبل ما أسمع!

ـ أردت أن أقول إن على المرء أن يتولّى الأمر بنفسه عندما يعجز الناموس عن تبديل ما في النفوس.

ـ لن أختلف مع مولاي أبداً. لسان مولاي ينطق بالنيابة عن لساني!

ـ أردت أن أقول إن الحمل، الذي جئت من أجله إلى الصحراء دون أن أعلم السبب، لن أحفظه من السوء إلاّ إذا أبقيته بين يديّ، إلاّ إذا أعدته إليّ، إلاّ إذا صيّرته جزءاً منّي كما كان في اليوم الذي سبق الخروج.

ـ مرحى! مرحى!

ـ حملي عطيتي وغاية لي في الحياة، ولا حيلة لي لصونه إلاّ باندماجه بي اندماج الطين بالطين، فهل يرى الحكيم غير ما أرى؟

ـ لا يرى المملوك إلا ما يرى مولاه.

ـ قررت بشأن الحمل أمراً يحميه من كيد الأغيار، وينقذه من أقران الكذب، ويبقيه كنزاً إلى الأبد.

ـ . . .

ـ سأضعه بين يديك لتربّي فيه سرّ الأبد، وتعلّمه، منذ عهد المهد، أن صاحب الحمل للمحمول قدَرٌ، ولن يدرك الخلود إلاّ من صار له وليّ الأمر وليّاً، وسلفاً، وأباً، وربّاً، ورفيقاً، وقريناً أبديّاً.

ـ زرع أرض السلالة ببذار العهد رسالتي منذ بدأَتْ الذرّية، وظهر لعاعها في خلاء الصحراء.

ـ سأضع حدّاً لطغيان أهل الشماتة، وسأريهم أن ابن الظلام سيعرف كيف يردّ الكيد، وينتقم. .

ـ لا أخفي عليك: كلّ الصحراء تنتظر اليوم الذي سيدخل فيه ابن الأدغال على سليلة النبلاء لينجب منها ذريّة تنتقم للسبي الأبدي.

- لن تشرق على الصحراء شمسٌ لذلك اليوم.

- لا أخفي عليك يا مولاي: العقلاء أشدّ شماتة، لأنهم يظنّون أن ما سيحلّ بك لعنة استحقّها مولاي يوم خالف الناموس وأتى بسلالة الأغراب إلى مخدع السادة.

- خالفت ناموسهم حقّاً. أعترف بذلك. وسأخالف ناموسهم مرّة أخرى إذا كانت إرادة ناموسهم هي علّة ما حلّ بي. سوف نرى أيّ النواميس أقوى: ناموسي أم ناموسهم. ولكن يجب أن أعترف أيضاً أني لن أستطيع أن أفعل شيئاً إذا لم أَفُز بمساندة الحكيم.

- مَنْ يسمّيه مولاي حكيماً هو عبد بين يدي مولاي كما كان عبداً ذليلاً بين أيدي أسلاف مولاي.

- لا يكون الحكيم عبداً لمخلوق أبداً، فهل.. فهل ستقول للبُنيّة أن الأب هو الرَبّ، والأقربون أولى بالمعروف؟

- ومَنْ يستحق أن يُحبّ، يا مولاي، غير الأب؟

- هل ستخبرها أيضاً أن عشق ذوي القُربى شرط لبهاء النفوس، وبهاء الأبدان؟

- فليهنأ المولى بالاً، لأن العبد لن يدّعي الوفاء إذا لم يردّد أشعاراً في مديح مولاه..

في الخارج، في سماء الحمادة الملفوفة بغيم الشمال، جعجع الرعد من جديد.

26

«من يستحقّ، تحت قبّة السماء، أن يفوز بالحبّ غير الأب؟»

تساؤل تردّد في الخلاء كثيراً منذ تلك الليلة التي أخرجه فيها سليل الأدغال من ظلمات الخباء إلى ضياء الصحراء. كان أوّل من استعاره الإمَاء، والإماء قمن بتلقينه لقرنائهن وعشاقهن وأقربائهن من قبيلة العبيد. وهؤلاء تغنّوا به بينهم وبين أنفسهم كما اعتادوا أن يتغنّوا بلحون الحنين، فتلقّفه من شفاههم الطير، فردّده، وطار به، بعيداً، إلى المراعي، فجرى على لسان الرعاة. والرعاة أسمعوه لضيوفهم العابرين الذين لا يفنون ولا يتوقفون عن العبور. ولمّا كان هؤلاء قوماً غامضين، ميّالين إلى العزلة ولا يرافقون في تنقلاتهم أحداً، فقد صاروا، عبر الدهور، أحقّ الناس بمخاطبة الجنّ، وأكثرهم حظوة عند أهل الخفاء، فكان أن ساروا بالخبر بعيداً، وأسرّوا به إلى أكثر أهل الخفاء فضولاً، فتردّد هناك أيضاً، كما ادّعى بعض مَنْ عرفت فيه القبيلة خصال التحاور مع أبناء تلك الأمّة.

«مَنْ يستحق، تحت قُبّة السماء، أن يفوز بالحبّ غير الأب؟»

عبارة غامضة، وفي قول بعض الناس بَلْهاء، لا تحمل حكمةً، ولا أمثولة، ولا سرّاً، بل لم يرَ فيها الكثيرون غير بدعة ثرثر بها لسان طائش، فاختطفها من بين الشفتين لسان أكثر طيشاً، فردّدها، وتغنّى بها، فوهبها جمال الصوت بهاءً، وأعارها اللحن الشجي القديم حلاوة القدمة، ففاضت بإغواء، ونالت إيماءً، فرأى فيها الرائي ما لا يُرى، وسمع فيها السامع ما لا يُسمع، فتكلّم أهل النبوءة فقالوا إنها تبشّر بالنبأ المجهول.

النبأ المجهول؟!

لم يجد الخصوم في العبارة لا إيماء لنبأ، ولا إشارة لنبوءة. ثم عادوا وذكّروا بالبدع وأهل البدع. قالوا إن الصحراء في تاريخها القديم لم تعانِ من أهواء الأقدار، ولا من الأوبئة، ولا من الجدب، ولا من الغزاة، كما عانت من البدع وأهل البدع. أعادوا إلى عقول أهل الصحراء ما نسيَهُ أهل الصحراء. تساءلوا بدهاء لم يعرفه الناس إلاّ في الثعالب: «ألم يحذّر الناموس في وصاياه: إيّاكم والبدع؟ ألم يقل في وصيّة أخرى إن البدعة فتنة، والفتنة باب لأهوال أكثر شرّاً من الوباء ومن الجدب، ومن العدوّ؟» جلسوا في ظلال الأخبية عند تزحزح

الشمس نحو الغرب، وهجع كلّ على قفاه ليهاجر إلى السماء العارية ليطيب الحديث عن وصيّة أخرى رآها القوم أكثر وصايا الناموس الضائع قداسة، وأجمع الأسلاف أنها كانت علّة وجودهم، وسرّ مقاومتهم للفناء في بيداء لا تعتنق إلاّ الفناء. تحدّثوا عن الأمّ التي كُتب عليهم أن ينتموا إليها من أوّل يوم، ويعبدوها في أيّامهم كلّها، وينسبوا سلالتهم إلى ملّتها وحدها، لأنها كانت لهم سرّاً لم يجدوا له تفسيراً، ولغزاً لم يفكّوا رمزه، وطلّسماً لم يعثر له حتى أدهى الكهّان على كلمة السرّ. ولكنهم وُلدوا فوجدوا إلى جوارهم الأمّ، وتمتموا فتكلموا بلسان الأمّ، واشتاقوا فكلّمهم الناموس عن الأمّ، وفتّشوا فألهمتهم السماء بديانة الأمّ. فمن أي ركن جاء اللئيم ببدعه التي تريد أن تقلب الأمر رأساً على عقب، فتخرج العرّافة ـ الأمّ من عروش النبوءة، وتقطع نسب السلالة إلى الأمّ لتقطع دابر النسل الصحراوي، وتخسف بالرّبّة: «تان يَت» (التي لم تكن أيضاً سوى أمّ)، السماء لتنزلها أرض البيداء؟ أيّ شرّير أقبل على الصحراء داعياً إلى تحويل مجرى وديان الصحراء بدعوته البليدة إلى عبادة آباء لم يدخلوا الخلاء يوماً إلاّ ليخرجوا منه؟ قالوا أيضاً إن على أهل العقل أن يحترسوا، لأن وراء العبارة ما وراءها، والأسلاف جرّبوا أن الظلمات التي خرجت من أركانها

العبارة لم تخرج إلى ربوع الصحراء غير الغيلان وأقبح أنواع الجان.

27

صاحب البدعة لم يكترث.

خرج من ركن الظلمات في تلك الليلة، وتأهّب للسير بالوصيّة. حبك للوليدة شبكة معقّدة من حبال المسد تشبه تلك الحبال التي ينسجها الرعيان حول ضروع النوق لمنع الحيران من الرضاعة. حبكها باهتمام من اعتاد أن يرى في كل عمل، مهما صَغُر شأنه، سرّ حياته كلّها. حبكها وهو يتبسّم، ويتحدّث لنفسه، و. . يغنّي. وعندما فرغ من عمله تسلل داخل خباء المربية، ووضع الطفلة في أحبولة المسد. وضع الحمل على ظهره وانطلق إلى الخلاء البعيد.

رآه الناس ينطلق، وسمعوه يغنّي، ويتكلّم، ويردّد نبوءته عن أحقيّة الأبناء بحبّ الآباء. علّمها، في سكون الخلاء، وصايا أخرى قال للقوم إنها مستعارة من تعاليم الناموس. بدأ بالقول إن على الفتاة إذا حضرت المجمع أن تتحصّن بالصمت فيما تتكلّم بنات الندّ، وتنقاد وراءهن بسلاسة الماء إذا تحرّك الجمع، وسارت بنات الندّ. ظلّ يعيد التميمة للصغيرة منذ ارتياد الخلوات للمرّة الأولى، وعندما سأله العبيد عن الإشارة في هذه

العبارة المبهمة أجابهم بعبارة أكثر غموضاً: «مروّض الجدع لا يبدأ بشدّ الرحل على الجدع. مروّض الجدعان يبدأ ترويض الجدعان من أبعد طريق: مروّض الجدعان يجعل الجدعان تنوء بأعباء الحجارة وغرائر التراب أوّلاً، ثم يحكم رسن المسد حول رأسها، ويشدّ الرسن إلى جذع الشجرة زمناً آخر. ثم يخزم الشفة بخزامة الزمام في زمن آخر. ثم يجرّب وضع السرج أمام السنام في الزمن الأخير. بعدها يستطيع المروّض الحكيم أن يعتلي هامة الدّابة دون أن يجازف بسقطة مميتة». أثار القول استخفافاً، لأن الدهماء لم يفهموا السرّ. لم يفهموا الصلات الحميمة التي تربط ترويض الجدعان على تحمّل أوزار السروج، وترويض الصبايا على تحمّل أوزار الحياة.

28

في إحدى المرّات اقتنص لها في الخلاء بهمة غزال. غافلها في سهل الطلح في عتمة الفجر بينما كانت تتكوّم حول نفسها في فجوة بجوار الجذع. كانت تتنفّس بلهفة كأنّها تلهث. كأنها تركض في حلم، كأنّ قناصاً يطاردها في الإغفاء، فتفرّ من سهامه باستباق السهام ومحاكاة مروقها في الفراغ. شرر يخترق الفضاء ليلاحق شرراً. وميض يومىء في الهواء ليلاحق وميضاً.

طيف لا يكاد يلمحه البصر يطارد طيفاً لا يكاد يدركه البصر. ولكن الجرم الذي استعار خصائص الأطياف استعارة تنهكه المحاكاة، فيغلب الطبع أخيراً، فيستسلم، وينهار، ويخرّ مستنفد القوى وهو يلهث إعياءً. في لمحة الإعياء امتدت كفّ أسرع من رأس السهم لتقبض على كوم الزغب الذي مضى يرتجف كأنّه يعاند نار الحمّى. انتفض الجرم، وفزّ. فزّ، ولكن بعد فوات الأوان. رأت البهم معلّقاً في كفّ الحكيم. يطلق صوتاً مبهماً، ويخرق الهواء بحوافره الأربعة. ساعتها رأت ما كُتب لها ألاّ تنساه إلى الأبد. ساعتها أبصرت حدقتين كحلاوين كبيرتين، مغسولتين بألق فتّان، تومضان ببريق غريب. حول الأعجوبتين تدلّت أهداب طويلة، موسومة بسيماء الكحل، تمتدّان في سياج كثيف لتطوّقا المحجرين المستطيلين. في المقلتين اللامعتين لم ترَ البهاء وحده، لم ترَ الفتنة وحدها، لم ترَ الإغواء وحده. في المقلتين المتألقتين، المبلّلتين أبصرت نداءً آخر، إيماءً آخر، فهل هو فزع؟ هل هو يأس؟ هل هو ما تسمّيه نساء القبيلة هولاً؟ هل هو ما تسمّيه العجائز فجيعة؟ ربما.. ولكن ما تذكرته أن الإيماء زعزع في نفسها شيئاً، فسرت في بدنها رعدة جعلتها تشيح بوجهها بعيداً. فاض في عينيها دمع بحرارة النار. أحاطت رأسها بذراعيها، وبكت بصوت فاجع.

29

شدّ لها الحكيم البهمة بوثاق حول الرقبة، وشدّ الحبل إلى وتدٍ بجوار الخباء؛ فكانت تتنقّل بحريّة، بين العراء الفسيح وركن الخباء من جهته الشرقية. يأتي لها الرعيان بأعشاب البريّة المجاورة، وتسقيها حليب المعز بالملعقة الخشبية.

كانت تستيقظ في غلس الفجر، وتنتظر القبس في الفراش، ثم تنسلّ وتخرج إلى العراء لتتفحّص الكحل في عيني سليلة الحُسْن. في البدء فتنتها السيماء الكحلاء في العينين، وأخذها وسم السواد في الرموش، وتساءلت من أين جاء اللون المعتم بهذا الجمال وهي التي لم تسمع في القبيلة نعتاً للسواد إلاّ مقروناً بالقبح والكراهية والعبوديّة. فكيف سوّت الجنيّة في عينيها لون الفحم فتنة، ووهبته هذا الإيماء الحزين الذي يصلح قريناً لكل جمال نبيل؟

في الشهور الأولى قنعت بالفرجة على الكُحْل، فكانت تسمع دمدمة القلب وهو يقرع ويكاد يفزّ من فرط الدهش والنشوة، ثم اكتشفت، في الزمن التالي، سرّاً جديداً. اكتشفت البلل الخفيّ، البلل الأبديّ. دمع ينزّ من مقلة السواد، فتتألق العين بوجع غامض، نبيل ككلّ شيء حزين، يتكلّم بنداء بعيد يعجز عن فكّ طلسمه ترجمان اللسان، فتتضعضع، وتستسلم

لرجف محموم يذكّرها بفجيعة اليوم الأوّل، فتنكمش حول نفسها، تحيط رأسها بذراعيها وتبكي.

خُيّل لها أن الفجيعة في عين البهمة تتضاعف مع الأيام، ففاتحت العجائز بأمر الدّاء. قالت المربيّة: «لن يقف حزنها عند حدّ ما ظلّت أسيرة القيد». ذهبت إلى العراء، ونزلت الوادي، وهي تفكّر في أمر القيد.

عادت إلى المضارب لتسأل عجوزها: «ألن أفقدها إذا أطلقت قيدها؟». ابتسمت المربّية بغموض وهي تمخض الحليب وتتمايل مع القربة كأنّها انتشت بنوبة من نوبات الوجد. قالت: «من يدري؟ في طفولتي فزت بغزالة لم أضع لها ساقاً في القيد أبداً. أرضعتها حليباً بيدي فكانت تتبعني كظلّي عندما أخرج لرعي الجداء في المراعي. وعندما صارت غزالة ذهبت ترعى مع القطيع، وتعود إلى المضارب مع القطيع. ولم تترك القطيع إلاّ في اليوم الذي ضلّ فيه الراعي السبيل، فهجم عليه الليل، فأغارت الذئاب على المعز، وفتكت بالقطيع..» انتظرت أن توضح المربية ما حلّ بالغزالة، ولكن العجوز سكتت، فسألتها: «هل فتكت الذئاب بالغزالة أيضاً؟». تمايلت مع القربة. اشتدّ إيقاع النوبة. انحسر اللحاف عن الرأس. تبدّت شعيرات مْفلفلة مصبوغة بمزيج الأعشاب البريّة. في عيني

العجوز رأت همّاً لم تعرفه. قالت أخيراً: «من يدري؟ الراعي قال إنه لم يجدها بين الجثث، والحكماء يقولون إن الغزلان تستعيد سلالة الغزلان عند الخطر، فمن أين لذئب أن يدرك الغزالة إذا استعادت طبع الغزلان ونسيت نسبها إلى القطيع؟». تلألأ في العينين ألق، فسألتها: «هل أنت شقيّة؟ هل أوجعك الفراق؟». اشتدّ البلل في عيني العجوز، ولكنها لم تتوقف عن متابعة القربة في رحلتها بين اليمين واليسار. ربّما لكي تداري حزنها على الغزالة الفقيدة. زفرت أنفاساً سخيّة. أطلقت آهة حنين. قالت: «لا شيء في الصحراء يوجع الإنسان كفراق جرم معشوق. لا شيء في الصحراء يفجع كفقدان من لم ننتظر فراقه، لأننا أخطأنا فأحببناه أكثر مما ينبغي. فإيّاك أن تحبّي الغزلان كما أحببت الغزلان. إيّاك أن ترهني قلبك في شيء حتى لو كان نُصُباً من أنصاب الحجارة!».

حدّقت في عينيها طويلاً. قالت: «ولكن الحكيم ينصحني أن أحبّ ذوي القربى. الحكيم قال: أن لا أحد يستحق أن يُحبّ كذوي الأرحام. الحكيم قال: إن الإنسان سيعيش شقيّاً إذا لم يحبّ الأب، إذا لم يعبد الأب..». تأوّهت العجوز بأنين جديد. قالت: «بوسعك أن تحبّي ذوي القربى كما شاء لك الحكيم أن تحبّي. بوسعك أن تعبدي الأب كما أراد لك

الحكيم. ولكن لا تنسي أن يوم الفراق أقرب لنا من حبل الوريد. فماذا ستفعلين بحبّك يوم يهجع الحبيب إلى جوار أسلافه في الضريح؟». سكتت. تابعت صوت الحليب وهو يدمدم في القربة بإيقاع مكتوم. قالت العجوز: «وصيّتي لك أن تفكّي قيد الأسيرة اليوم قبل الغد!». تساءلت بدهش: «وماذا أفعل إذا فرّت؟». أجابت: «أن تفرّ اليوم أهون من أن تفرّ غداً». تابعت الوهج المحموم في عيني المربّية. قالت بلغة غريبة: «لا أريد أن أفارق الكحل في عينيها. ماذا أفعل في هذا الخلاء بلا كحل في عيني الغزال؟».

أحاطت رأسها بذراعيها. بدأت تنتفض وتشهق وتختنق بالدموع. قالت العجوز: «لا أدري أين سرح عقل الحكيم يوم وضع في يدك هذه العطيّة. هل فات الحكيم أن عشق الغزلان أشدّ وجعاً من الحرق بالنّار؟». كانت الدموع تغمر وجنتي العجوز أيضاً.

30

لم تطلق القيد ففقدت صاحبة القيد.

في المساء بركت عند زاوية الخباء، عبثت بخيوط الوبر المتدلية من نسيج الخباء، ثم تكوّمت حول نفسها كما تكومت

في ذلك اليوم الذي انقضت فيه كفّ الحكيم على عنقها. تثني جيدها النحيل حول بدنها، تغمض عينيها فيغيب سحر الكحل، وتحسّ بالخواء والوحشة والضياع. راقبتها في تنفّسها، ورأت الزغب النبيل في علوّه وهبوطه ففاضت فيها تلك الشفقة الخفيّة التي تحسّها نحو فراخ الطير قبل أن ينمو على أجسامها الريش، وتقوى أجنحتها على الطيران.

انسدلت على الصحراء ستور العتمة.

في قبس الفجر انسلّت من الفراش وزحفت نحو حسناء الركن. وجدتها كما تركتها أمس. تتلوّى حول جسمها كأنها تحاكي الحيّة. يكسوها الزغب الكثيف الموسوم ببياض شهيّ في أكثر من موضع. اشتهت أن تحتضنها، ولكنها لم تشأ أن توقظها. مدت راحتها وتحسّست الزغب اللميس. مررت جميع الأصابع على امتداد الظهر، وتجوّلت إلى أعلى حتى بلغت نهاية العمود الفقري، ثم تابعت التواء الجيد المدسوس بين البطن وثنايا الرجلين الخلفيتين. لم تجفل لم تتلاعب بذيلها القصير كما اعتادت أن تحتج في حال الاستنفار. استعادت يدها وانتظرت. في الخارج تمادى الوهج، واقترب طلوع الصبح. في الضوء الشحيح لمع في الفم وميض. تفحّصت الخطم فوجدته مبللاً بالمخاط. تفقّدت النداوة بالسبّابة. مدت يداً

ترتجف لمساندة الخطم المحشو في التراب. وجدت استرخاءً مريباً في الفكّين وفزّ اللعاب من الفم كنزيف الدّم.

هبت فزعة.

بدأت ترتعد فأقبلت العجوز. أمسكت بها من معصمها واستدعت أحد المماليك. أمرته أن يحمل الجثّة بعيداً بإيماءة صارمة. اشتدّت الرجفة في بدن الصبيّة فغمرتها العجوز بثوبها الفضفاض، وطوّقتها بذراعيها.

31

جاءها الرعاة بغزالة أخرى، فقال لها الحكيم إن تربية الغزلان، كالحياة في الصحراء، حيلة. غنّى لها الأبيات الشهيرة التي تقول فيها المغنّية القديمة إن الحياة تصبّر وتحايل، ثم أخبرها أن عليها أن تطيل الحبل إذا أرادت أن تطيل حياة الغزالة. فَتَل الرعاة حبلاً لم تر القبيلة لطوله مثيلاً. القدماء قالوا إنه أطول من الحبل الذي يحتاجه السابلة لسحب الماء من بئر (هركات). وضعت الحبل في الساق الأمامية، فدبّت الغزالة في الخلاء مسافة طويلة. بعدها تقافزت في الفضاء بتلك الخفّة التي تنافس التماعات ضوء الشمس في أجنحة بعض الطيور العابرة، فظنّت أن سليلة البهاء الخفيّ قد فرّت إلى الأبد. غابت الغزالة

عن الأنظار فتضاءل كدس الحبل. مضى يتضاءل حتى ابتلعه الخلاء، ولم يبق منه سوى طرفه المشدود إلى الوتد في العراء الفسيح المواجه للخباء. خرجت وراءها. أدركتها ترتع في وادٍ يبعد مسافة بعيدة. جفلت وفرّت بعيداً. انحرفت غرباً، ولكن نفاد الحبل منعها من الانطلاق عبر العراء الممتدّ جنوباً، فطاردتها. أدركتها في إحدى الشعاب الهزيلة، التي تنحدر من ارتفاعات العراء الشمالي، تدس رأسها في دُغيلات العليق المتيبّس وتتلاعب بذيلها الملفوف بالزغب كأنّه قطعة صغيرة من العهن. أحسّت بقدومها قبل أن تنزل المنحدر، فرفعت رأسها في قلق، ودقّت الأرض بالحافر الأمامي، واستنفرت كل عضلة في جسمها المزموم، وتأهبت للانطلاق. توارت وراء شجرة بطوم تعلّقت بالسفح، ولكن النسيم هبّ بأنفاسٍ شمالية شرقية، فكان للطريدة رسولاً أنبأها بالخطر. فزّت واعتلت المرتفع بقفزة. انطلقت في الخلاء الذي يجاور المضارب في جهة الشمال الغربي. أعيتها المطاردة فغلبها الحنين للقاء الغزالة. جلست على فرش الحجارة. استعادت السيماء الخفيّة، الوسم الغامض الذي يشطر الصدغين، العين الكبيرة الكحلاء، الأهداب السخيّة التي تتستّر على امتداد العين. الوميض المبهم في كلّ قطعة. فكيف ستبدو الصحراء لو غابت في رحابها

الغزلان؟ ما نفع الخلاء إذا لم تتولّد في آفاقه الغزلان؟ ما جدوى الأشعار إذا لم تتغنَّ ببهاء الغزلان؟ وكيف يُحَبُّ ذوو القربى إذا لم يُحِبَّ الأقرباءُ الغزلان؟

انتابتها رعدة. بعد قليل سرت الرعدة في البدن كلّه. بدأت ترتجف. ولكن الحمّى لم تقتل الأشواق، ولم تمنعها من الانطلاق.

ركضت شمالاً. تنفث أنفاسها المحمومة، تسلخ الأحجار قدميها، وتغالب فزعاً مجهولاً.

في ساق شجرة طلح، ناحية الشمال، أدركت الحبل. اعترضته الطلحة أثناء فرار الغزالة في بيداء الشمال الغربي، فهوت أرضاً وتشبّثت به بكلتا يديها. كانت تلهث، بدنها مغسول بالعرق، وقدماها تنزفان دماً. ولكنها لم تشعر بالإعياء، ولم تأبه لجراح القدمين. بدأت تسحب الحبل بحماس الظامئين عندما يدركون حبال الآبار. مضت تلفظ أنفاساً كزفير القبلي، وتلهث كأنها لم تتوقف عن الجري، وفي عينيها يتمادى الفزع المجهول.

سحبت طويلاً. بجوارها تكدّس كوم المسَد. بجوارها تلوّى الحبل في لفافات ككتل الثعابين. ولكنها لم تتوقّف. لم

تتوقّف حتى عندما انكشف امتداد الخلاء العاري عن بدن هزيل يتلاعب به السراب فيشيّعه عن قوس الأفق أشباراً، ثم يشطره في الفراغ إلى نصفين، يغزوه بفيض سماوي كغمر اليمّ، فيقسم الجرم المسكين إلى حصصٍ كثيرة، يهوي بالمزق أرضاً، ولا يتوقف عن العبث بالضحيّة إلاّ إذا أغرق الجرم، وتبدّدت الضحيّة من الصحراء إلى الأبد، كأنّه ملّ اللّهو أخيراً، وقرّر أن يبدأ لعبة أخرى. تسلية أخرى أقرب إلى الكيد. كأنّه أراد أن يعاند العاشق، فشدّ الجرم إلى الجهة المضادّة. هي تستميت في سحب الحبل في جهة، وهو يجرجر الطريدة إلى الجهة الأخرى. استمرّ العراك. استحال الجسم، المعلّق في نهاية الحبل، أسمالاً ترفرف في الفراغ. وبرغم سخاء الغمر الذي جادَ به السراب إلاّ أن الجرم اقترب مسافة طويلة. ولكن اللئيم لم يستسلم. السراب طارد الضحيّة إلى نهاية المطاف. طارد القربان حتى اكتمل الحبل ووقع الجرم بين يدي العاشقة.

نالت العاشقة بدناً آخر لم تعرفه أبداً.

نالت جسماً دامياً جرّدته الأشجار من الزغب، ونهشت الحجارة جلده ففز منه الدّم، وانتزعت الأحراش الشوكية من الذنب كتلة الزغب المنفوشة كقطعة نفيسة من العهن، فنزّ منه دم تعلوه ذرّات الغبار. ولكن جراح الخطم كانت أقبح.

اجتثّت علامات الطريق لحمة الفكّ المشيّع إلى أعلى فنزف دم شحيح مستور بحبيبات رملية. غاب الوسم الناصع الذي يشطر الفكين ليجعل منهما سرّاً من أسرار البهاء. حجارة السبيل أكلت الخياشيم ففزّ منهما مخاط لزج، وذميم. الأهداب الكحلاء اختفت أيضاً، وأصاب المقلة الخفيّة طعنٌ أبشع من طعنات المدية.

التهمت أشباح الطريق من العين طرفاً، وفقأت الجزء المتبقي بوحشيّة، فتبدّت ملوّثة بالدم والفجيعة وذرّات الغبار. كان الجرم أشلاء دامية، كأنّ الغزالة كانت ضحيّة تنكيل بشع من جلاّدٍ خفيّ.

32

جاءتها العجوز إلى مخدع الداء. عبثت برماد الموقد بسبّابتها. شدّت اللحاف الذي انحسر عن رأسها فتبدّت الشعيرات المفلفلة المصبوغة بماء الأعشاب. قالت:

- هل ظننتِ أن حيلتك انطلت عليها؟

تمتمت:

- حيلتي؟ •

- حيلتك. أعني القيد.

- القيد؟

- ولكن السرّ في مكان أبعد من القيد يا بُنيّتي. الحسناء كانت ستهلك بين يديك حتى لو لم تجرّيها بحبل المسد. هذا عُرف.

- عُرف؟

- نعم. ناموس الصحراء هو الذي قضى بأن نفقد ما نملك.

- نفقد ما نملك؟

- نعم. لا بد أن نفقد كل شيء وقع لنا في قبضة اليد.

- هل جئتِ لتسمعيني الأحاجي؟

- ألم تري كيف يفسد حتى الماء إذا حبسناه في القربة أو الوعاء لأمدٍ طويل؟

- . . .

- ما امتلكناه أيضاً حبسناه، وما حبسناه قتلناه بأيدينا.

هل استعرتِ من جلالة العرّاف لسانه؟

- استعرت لسان الصحراء التي استعار منها العرّاف لسانه. ولكن لا بد أن تعطيني الإذن إذا شئتِ ألاّ تحزني: أردت أن

أوصيك بأن تدفني قلبك بعيداً، ولا تعشقي جسماً يدب على الأرض، أم يُرى بالعين.

ـ ماذا أعشق إذا لم أعشق الأجسام التي تمشي على الأرض، وأراها كما يراها الناس؟

ـ احترسي، فهنا مخبأ الأخطار. احترسي إذا شئت ألاّ تنضمّي إلى سلالة القتلة.

ـ القتلة؟

ـ نحن نقتل بالحب كل محبوب. ولا حيلة لنا للاغتسال من الجرم إلاّ بالمضيّ وراء الآفاق، والبحث عن المعشوق الذي لا تكشفه الصحراء أبداً.

ـ لا أفهم. لن أفهم أبداً.

ـ ستفهمين. لا بد أن تفهمي إذا أردتِ ألاّ يأكلك الشقاء في هذا الركن. تعلّمي أن تنظري بعيداً، بعيداً جداً. انظري إلى الخفاء الذي تخفيه الآفاق. اعشقي الخفاء الذي خفي، اعشقي كل شيء تخفّى، لأن الأشياء التي لا تظهر لنا باقية وتستحق العشق. أما الكائنات التي تتبدّى لعيوننا، وتظهر لنا في العراء فإنها لا تمكث طويلاً، لأنها دائماً في عجلة من أمرها، لا تكاد تظهر حتى تختفي، لا تتبدّى حتى تعبر

وتغيب. فميلي عليّ بأذنك، واسمعي الوصيّة من فم العجوز. . .

ـ لا أعرف كيف تريدينني أن أعشق شيئاً لا أعرفه، ولا أراه.

ـ أن تعشقي ما لا ترين أهون من أن تعشقي كائناً لا تمتلكه يدك حتى تفقده. أن تعشقي ما لا تعرفين أهون من أن تقتلي بالعشق ما تملكين.

ـ أنت تريدينني ألاّ أعشق أبداً. لماذا تقولين إنّك تنكرين عليّ أن أحبّ؟

سكتت العجوز. تلحّفت بالوجوم الذي اعتادت أن تتستّر به دائماً في الأوقات المبكّرة التي تجلس فيها قبالة نار الموقد لترجّ شكوة الحليب يميناً ويساراً. قالت بصوت اليقين:

ـ نعم. يجب أن لا تحبّي إذا كان عليك أن تقتلي!

ـ ولماذا عليّ أن أقتل إذا أحببت؟

ـ ألم نتفق منذ قليل أن العرف يقضي بأن نقتل مَنْ نحبّ إذا أحببنا مَنْ نحبّ؟ ألم تجرّبي بنفسك أنّك قتلت الغزلان مرتين بسبب الحبّ؟

ـ الغزال مات بسبب الحبل لا بسبب الحبّ.

ـ ها أنت تكذبين. أنت تعرفين أن الغزالة لم تمت بالحبل، ولكن شهوتك هي السبب، فكفّي عن خداعي يا مسكينتي، وتوقفي عن مطاردة الباديات كلّها.

ـ لا أفهم لغة العرّاف!

ـ سيأتي يوم تسرحين فيه بعيداً كما سرح كل الصحراويين الذين سبقوك، وستعرفين في ذلك اليوم إيماء الخفاء، فتدركين ما يستحق أن يُعشق، وما لا يستحق. وإذا شئت ألاّ يهرب منك ذلك اليوم قبل الميعاد، عليك أن تنسي نفسك، وتعاهدي الصحراء على أن لا تكشفي قلبك لمخلوق أبداً.

ـ من أين لي أن أفهم لغة العرّاف؟

ـ أنكري الجميع، ولا تكشفي قلبك أبداً.

استولى على المكان سكون. أعادت العجوز بلسان اليقين:

ـ أنكري الجميع، ولا تكشفي للأغيار قلباً بعد اليوم!

33

مكثت في الركن شهوراً.

أقعدتها نوبات القيء والدوار، وشلّتها الفجيعة في الحسناء، فاعتصمت بالزاوية، وسكنت ظلمات الخباء حتى

تحدثت ألسنة السوء عن غلبة السلالة فقالت إن دسيسة العرق حقيقة لم تجد الأعراق لعلاجها حيلة، لأن الأصل الذي يرثه الخلف عن السلف هو طبع في المخلوق، كالجبلّة، لا بد أن ينتصر؛ وها هي الوليدة تقتفي أثر الوالد فتعتكف أيضاً، وتسدل على نفسها ستور العتمة.

كلّما زحفت للخروج، وحاولت الوقوف على قدميها، عاد لها الدوار، واستولت عليها نوبات الغثيان، وأصابها العجز والصداع، فركعت أرضاً، وعادت زحفاً على عقبيها.

جاء الحكيم لزيارتها فساءلته:

ـ يُقال إن بالطرف المعشوق يحيق الخطر، فهل هذا صحيح؟

انكفأ العجوز على راحتيه، ومسّد شبكة العروق التي تمزّق يديه وساعديه. قال بيقين مريب ذكّرها بيقين المربية:

ـ لا ينبغي أن تشكّي في ذلك أبداً.

ـ لماذا كتب على المعشوق أن يهلك؟

ـ ليس المعشوق هو الهالك الوحيد، ولكن العاشق أيضاً لا بد أن يهلك!

ـ العاشق أيضاً؟

ـ السرّ في اللهفة. في التوق المميت الذي يقضّ المضجع، ويوسوس فينا الليل والنهار لنستحوذ على ما ظننا سعادتنا في الحصول عليه. لا شيء يستطيع أن يمنعنا من الوصول إليه. وعندما نحصل عليه لا ندرك السعادة بالاستيلاء عليه، لأن الطرف المسكين لا يحتمل الأسر الذي أوقعناه فيه بوقوعه في قبضتنا، فيتوجّع ويصيبه السقم، ويبدأ في الاحتضار. ولكنه لا يموت إلاّ عندما يردّ لنا الطعنة ويصيبنا بالداء نفسه الذي أصبناه به.

سكت. حرث بإصبعه على تراب العتمة علامة قبل أن يضيف:

ـ أنتِ نفسك كدت تهلكين بسبب الطعنة، بسبب الدّاء الذي أصابتك به غزالتك الحسناء!

ـ هذا ما لم أسمعه من قبل. هذا ما لم يسبق لأحد أن قاله لي. هل.. هل أنت على يقين أن العلّة...؟؟

ـ نعم العلّة بسبب الغزال.

سكتت مهلة. قالت بصوت رنّ فيه الغضب:

ـ لماذا جئتني بالغزالة إذا كنت تعرف أن في بهائها داءً مميتاً؟ لماذا اصطدت لي ذلك الغزال الصغير في ذلك اليوم؟

ـ لأني أردتك أن تجرّبي. أردتك أن تعشقي. أردتك أن تضعي قدمك في موقد النار.

ـ ولماذا أردتني أن أضع قدمي في موقد النار؟

ـ لأني أردت أن ألقنك الوصايا عملاً بوصيّة الأب. أعرف أنك لن تتلقي الدرس إذا لم تتلقي طعناً قاسياً كطعن غزالتك الحسناء.

عمّ سكون. في البُعد سُمِعَ ثغاء جداء عائدة من المراعي. في رأس الخباء غنّت الريح بولولة فاجعة. قالت:

ـ هل أردت أن تقول إن علينا أن نتجنّب الحبّ كما نتجنّب الحيّات، لأنّه لا بدّ لمن نحبّ من أن يصير لنا عدوّاً أخطر علينا من سموم الحيات؟

ـ أحسنتِ. أحسنتِ ألف مرّة. لقد التقمتِ أوّل الوصايا.

ـ ما حاجتنا إلى الحياة في هذه الصحراء إذا كان العشق جرماً وداءً؟

ـ صدقت. لا حاجة بنا للحياة ولا للصحراء ما دام العشق جرماً وداءً.

ـ أليس الأنسب أن نرجع إلى الخفاء إذا كان الحبّ داءً والتوق خطأً؟

- صدقتِ. الثمن جسيم حقاً عندما يصير رهن القلب علّة. ولولا وجود الآباء لكان الأنسب أن نذهب إلى الخفاء طوعاً.

- ألن يكون حبّ الآباء مهلكاً أيضاً؟ ألا ينهل الحبّ من نبع واحد في كلّ مرّة كما قلت لي يوماً؟

- حبّ الآباء هو الحبّ الوحيد الذي لا يعيد لنا العشق طعناً لأنه قَدَر. لأنّ طعنة الأب سبقت كل طعن فأفرغت حمولة السمّ يوم أودعتنا في الأرحام.

- هل تريد أن تقول إن بوسعي أن أحب أبي دون أن أخشى الأذى؟

- نعم أردت أن أقول إن حبّ الأب هو الحبّ الوحيد الآمن!

- الحبّ الوحيد الآمن؟

أعاد الحكيم كأنه يردد تميمة:

- حبّ الأب هو الحبّ الوحيد الآمن!

اقترب ثغاء الجداء. سُمع تصايح الرعيان. هدأ عويل الريح في شعفة الخباء.

أعاد الحكيم كالمأخوذ:

- حبّ الأب هو الحبّ الوحيد الآمن!

34

أشرقت في سماء الصحراء شموس، وغابت شموس.

اغتسل فضاء الصحراء ببروق، وجرت في قيعان الوديان مياه كثيرة.

عبرت سماوات الصحراء أسراب الطير، وارتجف أهل الخفاء جذباً ووجداً بغناء الصبايا في ليالي استواء القمر بدراً. تبدّد في الجسد زمان، وحلّ، في الجسد، زمان.

كانت تنحني فوق وعاء الماء خلسةً، وتكشف عن الصدر، لتداعب النهد النافر، المدوّر، المعاند، كقطعة صلْد. تتأمّل الكنز المعلّق في مرآة الماء وتتعجّب. تحدّق في سطح السائل، وتتساءل عن مسلك الكنوز. للترفاس أيضاً مسلك شبيه بمسلك النهد. الترفاس أيضاً كنز يستغفل، يفقع الأرض، وينتهك الطين، يزيح القلاع أعجوبةً مستديرة نافرة، معاندة كقطعة الصلد. الترفاس في الأرض، كالنهد في الصدر، سرّ يفزّ من المجهول.

تتبسّم بغموض. تمد الأنامل لتداعب الحلمة المزمومة في شعفة الكنز. ترتجف. تطلق صوتاً كفحيح الحيّة. تتحسّس الجرم المشدود. تلتقم الكنز بقبضتها. تعتصر الصلد المعاند.

تتوجّع بأنين محموم. تغمض عينيها. تغيب قليلاً. تفتحهما. من المقلتين تفيض الحمّى، والشهوة، والانتشاء. تمد راحتيها إلى الغمر في الوعاء. تملأ الراحتين سلسبيلاً لئيماً. ترش الصدر غمراً. ترش مرّة، مرتين، ثلاثاً. ولكن نهم النهد للماء يزداد. ظمأ الحَلَمَة لقطرة الماء يتحوّل إلى لهفة، فتركع. تركع على ركبتيها لإرواء الكنز الظمآن. تنحني على الوعاء. تُغرِق القطعتين الشقيّتين في الغمر فيغمغم الماء بصوت مكتوم. تتنهّد بالصوت نفسه الذي يشبه فحيح الحيّة. يغيب السواد من العينين. تدور الحدقة في المحجر تائهةً. تدور حول نفسها. تطوف المدار طويلاً قبل أن ترجع لتستقرّ، قبل أن تستعيد السواد، قبل أن ينطفىء التوق ويفرّ منها الانتشاء. تنتزع الكنز من غمره، فيترجرج الماء حزناً على البَيْن. تأبى قطرات عنيدة إلا أن تلاحق النهد، فتتشبّث بكرة الصلد. حبيبات صغيرة ما زالت تحتفظ بلون الإناء النحاسي المطلي بطبقة كثيبة من قصدير. حبيبات هشة ولكنها مستديرة أيضاً، نافرة أيضاً، شقيّة أيضاً كأنّها تحاكي النهد في لهفته المحمومة إلى المعشوق المجهول.

35

المربّية، أيضاً، تحدّثت عن شقاوة النهد، وفتنة كلّ نهد. في الأيام التي تسلّم نفسها ليديها الخشنتين لتتولّيا غسل البدن، كانت تغمر الصدر بالماء، وتدعك النهدين بقطعة العهن، وتتغنّى بالنهد: «الرمّان! الرمّان! ألم تمتعي فمك برمّان الواحات؟ ها أنا أنسى مرّة أخرى. لقد قشرته لك بيدي، وأطعمتك الرّمان بنفسي يوم أتى به أهل القوافل من الواحات. هل اختبرت صلابة الرمّان؟ لا حاجة بك إلى أن تجربي لأن الرّمان قد نبت على صدرك أخيراً. فالفوز لمن يقطف الرمّان! الفوز للفارس الذي سيمتلك الرمّان. من هذا الفارس يا ترى؟ هل هو من ملل الإنس أم من سلالة الجان؟ الحقّ أقول لك إني لا أرى في القبيلة، ولا في كلّ القبائل رجلاً واحداً يستحق نيل هذا الكنز. أنت لا تعلمين السرّ. أنت لا تعلمين أن الأنثى لن تكون أنثى إذا لم ينبت على صدرها رمّان كهذا الرمّان. من أين لك أن تعلمي أن المرأة ليست بامتداد القوام، ليست بسخاء الجدائل. ليست بامتلاء الردفين، ليست باتّساع العينين، ليست باكتناز الشفتين، ولكن الحُسْن في النهد، كلّ الفتنة في النهد. إذا امتلكت المرأة على صدرها رمّانتين كهاتين الرمّانتين، فمن حقّها أن تتباهى، ومن حقّها أن تقول عن نفسها: أنا امرأة. أنا

لست امرأة. أنا أكثر من امرأة. أنا حسناء!». تزمّ شفتيها المنفوشتين، فتتكاثف الغضون في جلدة الشفة العليا، تحجب شعرها المفلفل بلحافها. تلتمع مقلتها بإيماء خبيث، قبل أن تمضي: «فهل تستحق الحسناء أن تهب نفسها لتلك الدُّمى البلهاء المسماة رجالاً؟ هل من العدل أن يقع نهد، كنهدك هذا، في قبضة شبح من تلك الأشباح المنفوشة بأردية الكتّان وبالكبرياء الكاذب؟ أليس ظُلماً أن تذبل فاكهة الواحات هذه بين يدي مخلوق بليد كرجل من رجال هذه القبائل؟ أم أن فتاتي ترى غير ما أرى؟». تتساءل بلا مبالاة. تتساءل كأنها لا تتوقّع جواباً. تتساءل كأنها لا تريد سماع الجواب. تتساءل لأنها لا تتحدث إلاّ لنفسها، وعندما تسمع منها جواباً ترمقها بنظرة استنكار. الجواب ينتزعها من حُلمها، فتستيقظ، وتجفل، وتستنكر. تقول لها جواباً على السؤال: «الحكيم يقول إننا وُلدنا لننام في المخدع!» تنتهي من النهدين. تجفّف الرمّانتين بيدين خبيرتين. تلفّ حولها الغطاء بعناية. تنتقل إلى الجدائل. تفكّ الثنايا. يسترسل الشعر بين يديها في كتل فاحمة، سخيّة. تدلق مراهم الأعشاب في وعاء الماء. تشد الشعر نحو الوعاء بقسوة مفاجئة. تغرق كتل السواد في الغمر المعطّر بمزيج الزهور: البابونج، الرتم، الإكليل الجبلي، وزنابق لا تعرف أسماءها أو

فوائدها إلاّ العجائز. تحتجّ أخيراً: «إدبني[*] أيضاً مخدع. ولدنا أيضاً لكي ننام في الضريح. ولكن البهاء لا يدفن معنا أبداً. فلا تسمعيني أقوال تلك الحطبة اليابسة!» تترنّم بلحن قديم. تقاطعها عمداً: «كل القبيلة تقول إن الحكيم بكلّ شيء عليم.» تسكت، فتضيف قولاً جديداً: «يقول أيضاً إن المرأة هبة الرجل دائماً.» تزمّ الشفتين المنتفختين. تقول: «في صدور كل الرجال ترقد هذه القناعة. ولكن هل يستحق هؤلاء البلداء هذه الهبة حقّاً؟ هل يوهب البهاء بلا ثمن؟ هل يُقدّر البهاء بثمن؟ هل للغزلان ثمن؟». نالها مسّ. تزلزلت في ومضة بشررٍ فجائي، فتزعْزَعَ الجرم برجفٍ، وسفحت العين دمعة حرقت المقلة بنار. مضت العجوز: «ماذا ستعطينني كراءً لو أعدت لكِ غزالتك الحسناء؟». تدافع السائل في المقلتين. مضى يمخر الوجنتين، والخدّين، ويسقط في الوعاء المغمور بمزيج الماء وزهور الرتم والإكليل الجبلي، والبابونج. أضافت العجوز بقساوة: «أراهن أنكِ ستهبينني كل رجال الصحراء كراءً. أراهن أنّكِ ستهبينني كلّ ثروة الأب. بل أراهن أنكِ ستضحّين بالأب، بحبّ الأب، إذا كان استرداد الفقيدة هو المقابل!» أطلقت ضحكة مكتومة.

(*) إدبني: الضريح.

ضحكة لئيمة، وربّما شريرة. لوّثت منابت الشعر بمرهم الزهور، غمرت الرأس بنثار الماء. تمتمت بيقين لا يُسمع إلاّ من لسان العجائز: «أرأيتِ؟ ألم أقل لك إن البهاء لا يُقدّر بثمن؟».

36

في مرّات أخرى كانت تنسى (وربما تتناسى عمداً) أسطورة النّهد، فتتغنّى بحُسن الجدائل.

تنتهي من غسل الشعر بماء الزهور. تجفف الخصلات بحذق الإماء، ثم تبدأ بجدل الضفائر. تنحني على الشعر كما تنحني على الثوب المكوّم في حجرها عندما تلظم الخيط في سمّ الإبرة. تجرّ المشط الخشبي القديم (الذي فقد أسناناً كثيرة بسبب الاستعمال الطويل) على الدغل المكتظّ بالنبت. تترك المشط معلّقاً في حاشية، وتلفّ الشعيرات على أناملها النحيلة لتبدع النسيج. تتلوّى الشعيرات على السبابة في اليد اليمنى، ثم على وسطى اليد نفسِها، ثم تستقطع من الدغل نصيباً جديداً تحكم لفّه على طرف السبّابة اليسرى، لتبدأ الشدّ والجذب والدبيب الموجع. تتداخل الأنامل بخفّة الريح، في حين تتسلّل أنامل أخرى لتختلس من الدغل خيوطاً جديدة لتغذّي النسيج

الوليد. في الوهلة الصغيرة التي تعقب اختبار الأصابع في الدغل، واستقطاع النصيب، لإخفائه في ثنايا الجديلة، يحدث المسّ بسبب قساوة الشدّ. تتأوّه ألماً، ويفزّ في العين دمع الغضب. ولكن العجوز لا تأبه أبداً. العجوز تروّض لحون الشجن حيناً، وتتغنى بأعجوبة الشعر حيناً آخر. تنشط حركة الأنامل في غابة الشعر. تتزوّد من المخزون بالنصيب فتتلقفه أنامل أخرى لتحكم الرباط حول أنامل أخرى تكون بالانتظار دائماً. تستعيد الشعيرات دور وتر «إمزاد(*)»، فتلهم الأنامل بسرّ اللحن القديم. تتلاحم الأصابع، تتضافر مع الشعيرات، لتصير، باللّحن، مع الجديلة نسيجاً واحداً؛ يتزوّد اللّحن من دبيب الأنامل، وتتزوّد الأنامل من انطلاقة اللّحن، لتكوّنا معاً، نشيداً، شجيّاً، لذيذاً.

تمضي مع اللحن برغم الوجع. تغيب في اللحن الذي يَجُبُّ الألم. تنسى الشعيرات التي تكاد الأنامل تنتزعها من المنبت، لأن اللحنين (لحن الصوت، ولحن النسيج) يأخذانها بعيداً فينبثق من المقلة دمع آخر، ويولد في القلب وطن آخر يسمّيه شعراء القبائل حنيناً.

(*) إمزاد: آلة موسيقية وترية تشبه الكمنجة.

في نسيج اللحن تدس أغنيتها عن الشَّعر. تهمهم بالكلم الملحون:

«المرأة أيضاً شَعر. ما هي المرأة إن لم تضع على رأسها تاج الجدائل؟ ما هي المرأة إن لم تكن الضفائر لحُسْنها علامة؟ هل تستطيع المرأة أن تدّعي الحُسْن إذا حرمها الخفاء من هذا الشَّعْر؟. نعم. الشَّعر هو شِعْر المرأة. ما أتعس المرأة بلا شَعر. ما أهنأ المرأة إذا طوّقت رأسها جدائل الشَّعر. المرأة شَعر، فهنيئاً لك كنزك. هنيئاً لك هذا البهاء. كم كان سيبدو كنزك هذا أبهى لو لم يُكتب عليه أن يقطف من يد مَنْ لا يستحقّ».

تتعمّد أن تقطع عليها الأغنية. تتعمّد أن تستفزّ العجوز بسؤال: «ولكن ماذا تفعل المرأة بالبهاء إذا لم تذهب به إلى أحضان الرجال؟» تتوقف الأنامل. يتعطّل اللحن. تتساءل بلسان يخفي إيماءً أبعد: «هل سمعتِ هذا الهراء من فم الضبّ أيضاً؟». تجيب عن السؤال بدهشة، بالسؤال: «الضبّ؟». ترد العجوز: «الضبّ. حكيمك. نسميه ضبّاً لأنه لا يريد أن يموت. هل تستطيعين أن تثقي بمخلوقٍ لا يريد أن يموت؟ ماذا؟ لماذا أقول «تستطيعين»؟ عليّ أن أقول: «إيّاك أن تثقي في إنسان لا ينوي أن يموت». تتعجّب: «حتى ولو كان حكيماً

وضعني الأب الذي أوجدني أمانة بين يديه؟» تشدّ خصلة شعر بقسوة قبل أن تجيب: «لا يكون المرء حكيماً إذا كان يرفض أن يموت!» تتعجّب: «ومن منّا يريد أن يموت؟ ظننت أن أهل الخلاء لم يعرفوا للحياة غاية غير اكتشاف حيلة الخلود!» تنتزع من المنبت شعيرات أُخر. تحتجّ: «لا تقولي هذا أبداً. الإنسان وُلد ليموت. الإنسان الحقيقي لا بد أن يموت. الإنسان الذي يخاف الخفاء لا يطلب الخلود أبداً. لا يطلب خلوداً في الصحراء إلاّ ذلك العابر الخفيّ الذي أطلقت عليه الأجيال اسم «وانتهيط». هل تعلمين أن الشكوك تحوم حول حكيمك من قديم؟ هل تعلمين أن القبيلة على يقين من أن هذا المخلوق ليس عابراً ككلّ العابرين، وليس ضبّاً أيضاً ككلّ الضّباب، ولكنه «وانتهيط» اللئيم؟» تتعجّب مرّة أخرى: «من أين لك بهذه الوساوس؟» تنتهرها المربية: «هذه ليست وساوس، فاحترسي. لو كانت ظنوني وساوسَ لما خبّأ عنك هذا اللئيم المكيدة.» تتعجّب للمرة العاشرة: «المكيدة؟» تبتسم العجوز بغموض الساحرات. تقول: «هل تشكّين في هذا أيضاً؟ الإنسان لا يعيش طويلاً إذا لم ينشغل في تدبير المكيدة. الإنسان لا يحيا أعماراً، ولا يدفن الأجيال وراء الأجيال، إذا لم يتغذّ من دم المكيدة، فاحترسي أن تصدّقي حكيمك المزعوم..» تتعجّب. تستعيد

السيرة التي لا يفطم وليد الصحراء عن حليب الأم قبل أن يحفظها عن ظهر قلب.

تمتمت كأنها تعيد السيرة لنفسها: «وانتهيط. وانتهيط يقبل على الإنسان مرّة واحدة. وانتهيط يلتقي العابر مرّة في أسمال عابر آخر. وانتهيط يقدم على صهوة أتان في بياض الحليب، ليرافق الإنسان. ليقود الإنسان إلى الوليمة التي لا يعود منها أحد إلى الوراء. . .» التقطت العجوز الإيحاء: «أحسنتِ. الوليمة. ها أنت تتكلمين عن الوليمة. وانتهيط صاحب الأتان وصاحب الوليمة في كل الأجيال. فاحترسي من وليمة حكيمك المزعوم.» استمرّت كأنها لم تسمع تحذير المربية: «الوليمة. حيثما توجد وليمة فثمة هاوية. لماذا توجد الهاوية وراء كل وليمة؟» تأمّلت العجوز إيجاد الوليمة: «لأن الداهية لا يستطيع أن يكسب أتباعاً إذا لم يُغْرِهم بالوليمة. لأن الداهية لا يستطيع أن يجرّ البلهاء إلى الهاوية إذا لم يعدهم بالوليمة. الوليمة سرّ كل هاوية. فاحترسي!» تمتمت وراءها بذهول: «الوليمة سرّ كل هاوية. .» أضافت العجوز: «اعلمي أن المخلوقات التي تدبّ في الصحراء لا تفعل شيئاً أبداً بلا سبب. ولا أحد يتطاول على سلطان الخفاء، ويعطي لنفسه الحقّ في نيل حياة أبديّة إذا لم يبيّت في قلبه نيّة أبديّة فاحذري معمّر السوء!» تتعجّب. تتعجّب

سرّاً في البداية. تتفكّر في القول. في عداء فضحه القول. في المعمّرين الذين لا يموتون لأنهم يهدهدون في قلوبهم نوايا السوء. في وليمة الداهية الخالد. في الولائم كلّها. في الولائم التي يسعى وراءها العابرون دون أن يدروا أن ولائم تنتظرهم خلف الآفاق. دون أن يدروا أن الولائم تخفي أفواه الهاويات. تعود من رحلتها مع العابرين في الآفاق، لتتعجّب هذه المرّة بلسان العلن: «ألن أصدّق الحكيم حتى في قوله بوجوب حبّ الأب؟» تجذب العجوز شعيرة قصاصاً. تتردد. تحترس. تتجنّب بيت الوليمة. تقول بلسان من يخشى زلل اللسان. تقول بعضلة الاحتراس والشكوك والغموض: «بوسع الابنة أن تحبّ الأب حبّ الأبناء للآباء، ولكن. .» تحجم في آخر غمغمة. تغالب البوح. تعارك سرّاً يرفض أن يظلّ في الصدر رهينة، فينفث في الجوف ناراً لا تنطفىء إلا بخروج المارد من قمقم المجهول. تعضّ العجوز على شفتيها عضّاً قاسياً. يفز الدم من الشفة السفلية المنفوشة، ولكن المارد لا يستكين. تفزّ من عينها دمعة مميتة، وتجذب الشعيرات كأنها تريد أن تنتزعها من المنبت، فتتأوّه الفتاة وجعاً، وتَتَشكّى بصوت مسموع.

37

ذهب لزيارة المولى في خباء الليل فخاطبه من رواء الحجاب:

- هل ترى أيضاً في التحرّر من أعرافهم جُرماً؟

- إذا اضطرّ الإنسان إلى أن يجاوز الإنسان فلا يجب أن يتظاهر بما لا يبيحه عرف الإنسان.

- ولكن أعرافهم ليست أعرافي، وناموسهم ليس ناموسي. أنت أوّل من يعلم.

مدّ يداً في تراب تلفّه الظلمات. دبّت الأصابع تجمع حبيبات الحصى. بدأ يقيم من الحصباء وقطع الأحجار كوماً مبهماً. قال:

- هذه خطيئة النبلاء يا مولاي. السير في السبيل المستقيم الخطيئة التي قضت على الغزلان. غزلان الصحراء أنبل ملل الصحراء، وعلى الإنسان الذي اختار الحياة بين الناس أن يستعير مسلك سلالة أخرى. مسلك الثعالب.

سكت. من وراء الستار أيضاً لم ينطلق الصوت. أطاح بضريحه الصغير بجمع يده. عاد يفتّش عن حبّات الحصباء المبعثرة ليقيم بها صرحاً جديداً. قال:

- أردت أن أقول إن الصحراء أنجبت لنا مخلوقاً غير الغزال ليرينا أن الأمر لا يستقيم دون اكتساب الحيلة!

- ماذا تريد أن تقول؟

- أردت أن أقول إن التظاهر ناموس آخر في الصحراء.

- وكيف يستقيم أمري إذا لم أكن من الملّة التي تتقن التظاهر؟

- على مولاي أن يتعلّم التظاهر كما تعلّم المشي واستخدام اللسان والاستلقاء إلى جوار الحسان. أردت أن أقول إن التظاهر لا يختلف كثيراً عن كل الأشياء التي تعلّمناها في الطفولة.

استولى على خباء الليل صمت. استولى السكون على الركن الآخر من اللفافة السوداء المنصوبة داخل الخباء. تلهّى العجوز بتشييد صروح الحصباء. في الطرف الآخر انطلق صوت:

- وكيف تريدني أن أبدأ في تعلّم أمرٍ جسيم كهذا إذ كنت لم أبدأ في تعلّمه منذ الطفولة؟

- التظاهر ليس حرفة كضرب الحديد، وليس طبعاً يولد مع الإنسان أيضاً. الحياة يا مولاي هي التي تتولّى عنّا الأمر فتعلّمنا كيف نلجأ إلى هذه الحيلة لقضاء الحاجة، وتخبرنا متى علينا أن نفعل ذلك أيضاً.

ـ حظوظ الحياة لم تبتسم في وجهي يوماً، ولم تهبني شيئاً لم أنتزعه منها بقوّة الذراع.

ـ أخشى أن يكون مولاي قد أخطأ.

ـ أين أخطأت؟

ـ الثراء، يا مولاي، من حظوظ الدنيا! الثراء، يا مولاي، رأس الحظوظ!

ـ هذه هبات ورثتُها عن السلف، ولم أنلها من دنياك نيل اليد.

ـ إرث الأجداد أيضاً من هبات الدنيا، فلينحر مولاي في الغد قرباناً لاستسماح الخفاء!

ـ ولكن لماذا لا تحدّثني عن الحيلة لوأد الناموس حيّاً؟

ـ تستّر. تستّر، يا مولاي، بلحاف الناموس، وافعل، بعد ذلك، ما تشاء!

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ الناموس للناس حجاب. خلف الحجاب يفعل الناس الكبائر.

ـ ماذا تريد أن تقول؟

ـ يستطيع مولاي أن يقلب الناموس رأساً على عقب وهو يتكلم بلسان الناموس!

ـ إذا اهتديت إلى حيلة كهذه فأنا داهية حقّاً. هيء هيء هيء... ولكن.. ولكني لا أستطيع أن أصدّق أني أستطيع أن أستولي على مخلوق، هو لي ذرّية، دون أن أزيح كلّ وصايا الناموس من الطريق.

ـ أتذكر، يا مولاي، عبدك «أَفَر»؟

ـ «أفّر»؟

ـ عبدك الذي استأصلت يا مولاي لسانه يوماً عقاباً له على زلل اللسان.

ـ وما نفع الأبله «أفّر» في لغزٍ احتار في أمره حتى الناموس العظيم؟

ـ سرّ أعظم الألغاز في بطون أتفه الأشياء، فليمهلني مولاي قليلاً.

أطاح بالصرح الجديد بضربة واحدة. تبعثرت الحبيبات وقطع الحجارة في التراب الملفوف بالظلام. تسللت الأصابع لتبحث عن الحجارة الضائعة مرّة أخرى. قال:

ـ هل يعيب من فقد اللسان أن يفقد عضلة أخرى كاللسان؟

ـ ماذا تريد أن تقول؟

- هل يعيب العبد الذي فقد أعظم عضلة تلقّاها الإنسان من يد الخفاء، أن يفقد عضلة أحطّ شأناً؟

- هل..؟؟ هىء هىء.. هل تعني..؟؟ هىء هىء.. هل تعني العضلة الأخرى، العضلة المخبوءة بين الفخذين؟ نعم. لن يضير «أفّر» أن يفقد عضلة الفخذين إذا كان مولاي قد أفقده عضلة الفكّين.
- وهل ترى أن عضلة الفخذين أقل شأناً من عضلة الفكين؟
- وهل يشك مولاي في ذلك؟
- هىء هىء هىء. أنت شقيّ. أنت.. هىء هىء.. ولكن ما صلة عضلة «أفّر» الخفيّة بأمرنا الجليل؟

- ألم يدرك مولاي الإشارة؟

تحالف السكون مع الظلمة فأنزلا على الخباء إيحاءً مهيباً. توقفت الأطراف عن العبث بالحصباء كأنها شُلّت. في الصدر اختنقت الأنفاس. في لفافة الأردية أيضاً تسلل الحلف، فلفّ الطرف الآخر، الخفيّ، بستور الإيحاء الرهيب. ثم.. ثم تزلزل الخباء بقهقهة هادرة. قهقهة منكرة زعزعت تراب الأرض، وهزّت الصحراء، فتقاطر على المكان العبيد والإماء. تزاحموا في المدخل وهم يرتجفون. ناحت الإماء فزعاً من القصاص. خوفاً من الشؤم الذي ينتظر أمم الضاحكين. الشؤم الذي يقبل

خلسةً في يوم من الأيام، عندما يختم المجهول على رؤوس الضاحكين بالنسيان، ليأخذهم غفلة ويقوّض على رؤوسهم البيوت، ويميت لهم الأقارب والأقران، ويسلّط على قطعانهم الذئاب، ويبيد عبيدهم وخدمهم ظمأً، ويقطع عنهم النعم التي ظنوها يوماً بين أيديهم خالدة.

تعالى نحيب النساء، فتوقّف المولى لينهرهن. انتهر العبيد أيضاً من وراء الحجاب فانطلق الجمع. همهم الخدم، واستمرّ نحيب الإماء مكتوماً.

تكلم صاحب الأمر:

- فهمت. أظنّ أني فهمت. إذا كان للناموس مزية واحدة فهي في لغة الإيماء!

- أعترف أني لم أختر «أفّر» لهذا الأمر لعلّة اللسان فحسب، ولكن لأن في مسلكه لا مبالاة لم يكتسبها بعدَ استئصال العضلة، بل هي له طبع في نفسه أصيل.

- أعترف لك أيضاً أنك أحسنت الاختيار. والحقّ أني لا أعرف كيف غاب عن بالي هذا الشقيّ. بل إني لا أعرف كيف غابت عنّي المكيدة. هىء هىء.. هذه مكيدة وليست حيلة. هذه مكيدة حقيقية. هىء هىء..

غالب ضحكاً مكتوماً. عاد يتحدّث عن المكيدة بحماس غريب:

- انقل لأهل الشماتة البشارة منذ الغد. قل لهم إني دفنت رأسي في غبار العار وقررت أن أضع يد ابنتي الخلاسية، ابنتي الحسناء، في يد سليل الأدغال «أفّر». هىء هىء. قل لهم إني رضيتها لعبدي قرينةً إلى الأبد. هىء هىء. قل لهم إن بوسعهم أن يشمتوا ويهنأوا بشماتتهم التي فركوا أيديهم ليروها زمناً طويلاً. هىء هىء.. قل لهم إني أنوي أن أشنق نفسي في شجر الطلح خجلاً. قل لهم إني سأذهب لأرمي بنفسي في بئر «هركات» الرهيب نزولاً عند رغبتهم. هىء هىء. قل لهم.. ولكن قل لي: متى نستلّ العضلة من بين فخذي ذلك الشقيّ؟

38

خرج إلى الوديان بحجّة القيام بجولته الليليّة.

أقامت تلّة العبيد حوله طوقاً صارماً، ولكنه طردهم هذه المرّة جميعاً ولم يستبقِ من الجمع سوى الأبله «يهور». قطع نحو الجنوب مسافة قصيرة، ولكنه انحرف غرباً، ومضى إلى خباء الصبيّة. لم يعتد القيام بزيارتها إلا في أزمان متباعدة جدّاً.

في العهد الذي تلا مصرع الغزالة، ورقدتها في فراش العلّة طويلاً، جاءها للعزاء مرّتين. في المرّة الأولى لم تجب عن أسئلته لأنها لم تخرج من حبوس الغيبوبة حتى بعد أن تراجعت الحمّى. المربية قالت إن التحديق في الفراغ صار لها عملاً وحيداً، كما اختارت الصمت لغة وحيدة. في الزيارة الثانية حدّثها قائلاً إن الفَقْد قدر معلّق في رقاب أبناء الخلاء. قال لها إن الصحراويين ملّة فقدت «واو» يوماً، ثم فقدت الناموس أيضاً ففقدت السبيل إلى سرّ السلف وإلى طريق العودة إلى الواحة الضائعة. بعدها استمرّت السلسلة فلم يفقد العابرون السبل فحسب، ولكنهم فقدوا أنفسهم، واكتشفوا، أخيراً، أنهم سلالة ضائعة. مسّد على جبينها بأصابعه ليقول: «كلنا فقدنا غزلاننا يوماً. مَنْ منّا لم يفقد غزالة صباه يا صبيتي؟» يومها قالت له: «حدّثوني أنك حزنت أيضاً عندما فقدت أمّي. فهل كانت أمي لمولاي غزالة حقّاً؟» سكت. شيّع بصره إلى الخلاء الملفوف بستور الظلمات. قال: «تلك لم تكن غزالة الصبا يا صبيّتي. تلك كانت غزالة أخرى. ولكنهم لم يكذبوا عندما حدّثوك بحزني عليها.» تحسّس حبكة الضفائر، تفقّد بأصابعه تلك الشبكة الدقيقة من ثنايا الشعر المجدول قبل أن يقول: «ما أشدّ شبهك بأمّك. لا أعرف ماذا كانت ستفعل بي الوحشة في هذه

الصحراء لو لم يبعث لي الخفاء أمّك حيّة في هذا المخلوق الذي يجالسني!» ثم صارت العبارة تميمة أبديّة. يعيدها كلّما جاء لزيارتها، أو في تلك المرّات النادرة جداً التي تجيئه فيها إذا ألمّت به حمّى، أو تنازل وقام باستدعائها. يعيد العبارة كأنه يرددها لنفسه. كأنه وجد فيها ترياقاً خفيّاً ضد داء الوحشة حقّاً: «ما أشدّ شبهك بأمّك. لا أعرف ماذا كانت ستفعل بي الوحشة في هذه الصحراء لو لم يبعث لي الخفاء بأمّك حيّة في هذا المخلوق الذي يجالسني!».

قرأ على رأسها التعويذة هذه الليلة أيضاً.

داعب الجدائل، تحسس اللحاف على رأسها، أهال تراباً على عود نار يشتعل في الموقد. ثم قال بغموض: «لا ينبغي أن نردّ على الخفاء شيئاً!». همست: «عَمَّ يتحدّث مولاي؟» مضى يحدق في ظلمات الخلاء. قال بالغموض نفسه: «إذا وضع الخفاء في أيدينا شيئاً فتلك مشيئة الخفاء.» عادت النار تتشبّث بطرف العود الذي غمره بالتراب. تناول العود من الطرف المضادّ وغرسه في التراب بحنق. عاد يتفقّد الخلاء الملفوف بالظلمة كأنه يجاهد ليتبيّن الخفاء أو أهل الخفاء. مضى باللغة نفسِها: «الخفاء هو السلطان. الخفاء هو سلطاني لا الناموس..». تجاسرت. تجاسرت لتردّد قولاً من أقوالهم.

قالت: «ولكني سمعت العقلاء يؤكدون أن الناموس مستعار من الخفاء أيضاً يا مولاي». سكت، فسكتت أيضاً. ظنّت أنها قالت مُنكراً. ظنّت أنها انتهكت حَرَماً. ولكنه تكلم أخيراً: «لا تستمعي لما يقولون أبداً. إن استمعتِ لهم عشتِ شقيّة إلى الأبد، فإيّاكِ..» ثم مضى بعد صمت: «زحزحتُ الصخرة التي تعترض السبيل، فتأهبي للعودة إلى الحضن الذي خرجتِ منه يوماً..»

لم تفهم. همّت بأن تستفهم. ولكنه فزّ واقفاً. قال وهو يخطو في الظلمة: «إذا أنكر الإنسان الناموس فلن يقف في طريقه شيء!» ركض العبد في الخلاء، وأدرك مولاه.

39

في قاع الوادي وجد الحكيم يتدفأ بألسنة النّار، يحجب الضياء بكفّه، ويترصّد السماء بحثاً عن النبوءات والأنواء والمجهول.

بالجوار، على جذع شجرة الطلح، تمدّد الأسير عارياً، ملفوفاً بشبكة من حبال المسد. كان يبتسم طوال الوقت. وما إن تبيّن الشبح وعرف فيه المولى حتى أطلق ضحكة بلهاء صارت له علامة منذ أن عاقبه المولى واستل من بين فكيّه عضلة اللسان

قصاصاً له على زلل اللسان. في البدايات كانت الضحكة الجوفاء تستفزّ المولى استفزازاً شديداً فيأمر له بالجلد، ولكنه اكتشف فيما بعد أن أولئك الذين فقدوا ألسنتهم لا يملكون لغةً غير الضحك أو البكاء، فكفّ عن معاقبته بالجلد، وتعجَّب كثيراً عندما تذكّر أن العبد الأبكم لم يرفع صوته بالبكاء يوماً برغم تأكيد الحكيم أن البكاء يجب أن يكون شقّاً ثانياً للضحك في أفواه الذين فقدوا ألسنتهم، فتململ في قلبه تسامح، وأحسّ نحو الشقي بشفقة مبهمة.

في طرف الموقد، فوق ثلاثة أحجار مشيّعة فوق الجمر، وجد قِدْراً يغلي. انحنى فوق القدر فغزت أنفه رائحة مشبوهة. مزيج من الروائح الغامضة. رفع طرف اللثام السفلي وشدّه على الأنف. ألقى بسؤال صارم:

ـ ما هذا؟

مضى الحكيم يفرك يديه ويتلقّف اللهب. أجاب مهلاً:

ـ هذا ما لا يستغني عنه من أراد أن يجتثّ عضلة الفخذين!

ـ لا أذكر أننا احتجنا إلى هذا السائل عندما قطعنا لسان الشقيّ.

ـ عضلة الفكين عضلة ميتة برغم أنها مميتة يا مولاي، وعضلة الفخذين عضلة حيّة برغم أنها تبعث الأموات من الخفاء!

ـ ألا تستطيع أن تستبعد هذه اللغة حتى ساعة العجالة؟

ـ أردت أن أقول إن عضلة الفكين تميت، وعضلة الفخذين تحيي برغم أنهما مشحونتان بالسمّ، ولا يخرج منهما إلا السوء. بالأمس عندما انتزعنا من فم الشقيّ العضلة التي كانت لصاحبها حياة لم نكن في حاجة لاستخدام المراهم والزيوت لإيقاف النزيف، واليوم عندما نشرع في اجتثاث العضلة التي كانت سرّ الموت دائماً، فإننا نحتاج إلى الترياق لإيقاف الشكوى والنزيف.

لوّح المولى بيده في الفراغ سخطاً. تقدّم نحو الأسير المصلوب على الجذع الضخم، فهأهأ «أقّر» في وجهه بضحكته البلهاء. حدّق في عينين صغيرتين، ماكرتين، تومضان تحت ضوء اللهب. انحسر لثامه الباهت عن فمه فلمعت أسنانه أيضاً بالبريق. انسدل اللثام إلى أسفل فغطى الصدر، ولكن الجسد الأسود التحم بالظلمة فنسجت له من لونها ثوباً. اقترب المولى برأسه. مدّ رقبته حتى تلامس اللثامان. قال بصوت كحشرجة الغريق:

ـ ابكِ. لماذا لا تبكي؟ أريد أن أسمعك باكياً مرّة واحدة. هيء هيء هيء.. يروق لي أن أسمع ضحكتك الكريهة وهي تتحوّل عويلاً لأوّل مرة. هيء هيء.. هيّا. فلنبدأ!

أومأ للعبد الآخر بالسبّابة. هرع «يهور» نحو الموقد. وقف فوق رأس الحكيم. تساءل ببلاهة:

- ماذا عليّ أن أفعل؟ هل نبت في فم «أفَر» اللسان القديم كما ينبت الترفاس الذي لم يجتث من أصله؟

ابتسم الحكيم:

- هذا هو الاختلاف بين الإنسان والنبات. عضو النبات ينبت إذا قُطع، أما عضو الإنسان فلا ينبت أبداً. باستثناء هذا الفارق فإن الإنسان أيضاً نبات مثل كل النباتات.

انحنى العبد فوق رأس الحكيم. سأل همساً كأنه يخشى أن يسمعه المولى:

- ماذا يريد مولانا أن نستقطع اليوم من جسد «أفَرْ» الشقي؟
- مولانا يريدنا اليوم أن نستقطع عضواً آخر. في المرّة الماضية قطعنا العضو الذي يميت، واليوم نستقطع من الشقيّ العضو الذي يحيي العظام وهي رميم!
- لا يستطيع عقل العبد أن يدرك كلمة رمى بها لسان الحكيم. ولكن.. ولكن مولاي لم يخبرني ماذا يحسن بنا أن نستعمل في استقطاع العضو الجديد: المدية أم الجلم؟
- أظن أن الجلم المغروس أمام عينيك لاستقطاع العضو الجديد أصلح.

التقط العبد جلماً فظيع الحجم واللون، وتقدّم من الضحية. استوقفه المولى بالسبابة المشيّعة. اقترب برأسه من رأس الضحيّة. دسّ رأسه في رأسه. التحمت العمامتان. حشرج في أذن الضحيّة بالصوت نفسه الذي يشبه صوت غريق يشرق ويختنق بالماء:

- عليك أن تحتمل الوجع إذا كنت تريد القربى من المولى. عليك أن تتحمل سلخ الجلد إذا أردت الفوز بصبيّة مولاك. هيء هيء.. عليك أن تتقبّل ذبح المدية إذا شئت أن تدخل عليك مولاتك لتكون لك على عرش التراب، عرش القرين، قرينة. هيء هيء هيء.. عليك أن تتطهّر من عضلة النجاسة إذا أردت أن تفرح بالحياة. هيء هيء.. لقد قتلناك يوم استقطعنا منك اللسان، وها نحن نهبك الحياة اليوم عندما نستقطع منك عضلة السوء. هيء هيء.. سنعيدك طفلاً لنبعثك حيّاً. أنتم في أدغالكم لا تعرفون كيف يبعث الإنسان حيّاً لأنكم لم تجرّبوا الختان. عندنا لا يخرج الوليد إلى الحياة، إلى الصحراء، إذا لم تنل العجائز من عضوه نصيباً. هيء هيء.. هل تدري ماذا تفعل عجائزنا عندما تمتد أيديهن إلى أجسامنا ليأخذن نصيبهن من عضلة الفخذين؟ إنهن يزغردن هكذا: رو رو رو رو. هيء هيء. ثم يصرخن بأعلى

صوت. يصرخن حتى يسمعهن الجنّ: «يا «أَفَر» أنت منذ اليوم طاهر. هيء هيء.. رو رو رو رو..»

التفت إلى العبد بعينين مجنونتين. أومأ له بوعيد فارتبك العبد، وسرت في يديه رجفة. تراجع إلى الوراء خطوة. فتقدّم الحكيم. أمسك بالعضلة بكلتا يديه. أشار للعبد. تقدّم «يهور» بتصميم. هجم على الضحيّة بالجلم الرهيب، فتأوّه الجسم المصلوب على الجذع وانطلق في ضحكة وحشيّة. غمر النزيف يدي الحكيم فصاح بالعبد:

ـ القِدْر! هات القِدْر أيها الأبله!

هرع «يهور» إلى الموقد. عاد بالقدر. وقف أمام الضحية وهو يرتجف. انتزع منه الحكيم القدر. أمسك بالعروتين ودلق السائل اللزج بين فخذيّ العبد المصلوب على الجذع. ارتفعت القهقهة الوحشية، فصرخ المولى بتميمة العجائز:

ـ رو رو رو.. «أفَر» أنت منذ اليوم طاهر!

في هواء الليل ارتفعت رائحة الشياط.

تزلزل قاع الوادي بالجعجعة الوحشيّة، فارتجّ الجلمود الجبلي الذي يطوق الوادي من ناحية الغرب، وأعاد الصدى الجنوني إلى الشاطىء المضادّ.

40

في اليوم الذي أمر فيه المولى باستقطاع لسان «يهور» لا ليدفن السرّ، ولكن لكي يستمتع بسماع عويل العبد الذي لا يتقن الضحك، كقرينه الشقي، وإنما البكاء، في ذلك اليوم نفسه أقبل الحكيم «بوبو» ليسامره في وحشة ليل الشتاء الطويل. جاء يحمل في كُمِّه العجب كما حمل ذريّة الأجيال على منكبيه يوماً، بل وكما حمل، طوال زمانه الذي لا تذكر القبائل له بداية، أعاجيب أخرى تبدو للناس لهواً ومزاحاً ويراها هو إعجازاً. قال لصاحب الظلمات من وراء لفافة الحجاب:

ـ جئت لأحدّث مولاي عن المكيدة..

ـ المكيدة؟

ـ ألا يقال إن كل إنسان يدسّ في صدره مكيدة؟

ـ لا أصدّق أن الحكيم يمكن أن يحاكي السفهاء ويطوي في صدره مكيدة.

ـ على مولاي ألاّ يكذّب. على مولاي ألاّ يصدق. أعني على مولاي ألا يضمن إنساناً أبداً حتى ولو كان حكيماً.

ـ الحقّ أني أكثر الناس ميلاً إلى هذه الوصيّة منذ الطفولة.

ـ في صدرَ الإنسان نوايا لا يعرفها حتى الإنسان الذي يحملها.

ـ لم أشكّ في ذلك يوماً.

ـ لا يستطيع هذا المكابر أن يدرك ما سيفعله بعد قليل إذا كان يجهل نفسه. ولكنني لم أجيء لأحدّث مولاي عن أطوار الكائن الغريب، لأني انتويت أن أكشف المكيدة.

ـ المكيدة؟

ـ لقد نصرتُ مولاي في عدائه للناموس لا من باب وفاء العبيد نحو السادة، ولكن لقناعة قديمة صارت لي سرّاً أبديّاً.

ـ أكاد أجزم أني لن أفهم أبداً.

ـ فليمهلني مولاي قليلاً. لا أريد أن آتيك من الطريق الأبعد كما يروق لعقلاء القبيلة أن يفعلوا عندما يجادلون الزعيم، ولكني أردت أن أبارك نواياك في تخريب الأنثى الخالدة.

ـ عن أيّ أنثى تتحدّث بجاه «تانيْتْ»؟

ـ ها هو مولاي يرتدّ إلى الوراء ويقسم بـ«تانيْتْ» بدل «أمناي». هذا لا يليق بمن هَدْهَد في القلب نيّة.

سكت صاحب الظلمة في ركن الظلمة. سكت الحكيم في الركن الواقع وراء الحجاب. مدّ يداً مشطورة بالتجاعيد، وبحث في العتمة عن أحجاره الخفيّة. قال:

ـ لو علم مولاي مكيدة الأنثى ضدّ الصحراء لهانت عليه كل مكائد هؤلاء البلهاء الذين يسمّون أنفسهم رجالاً. هذه الدمى المنفوشة باللباس الأزرق لا تدري أنها ضحيّة لمكيدة قديمة، قديمة جدّاً، ولكنها ما تزال مستمرّة لأن أحداً لم يتجاسر ليستعمل الكوز الذي يحمله فوق منكبيه. وإلا كيف لم يسأل أحد نفسه منذ بدء المكيدة حتى اليوم عن سرّ ولاء القبائل للمرأة، وانتسابهم لملل الأمهات؟

ـ ولماذا عليهم أن يتعبوا أنفسهم ويستعملوا كرة الحنظل المقلوبة فوق مناكبهم إذا كانوا قد وجدوا الآباء يسيرون في الطريق نفسه حتى إذا جاء من يريد أن يخرجهم من الهاوية لعنوه واتهموه بالخروج على ناموس الأوّلين. أردت أن أقول إن السير في الطريق القديم يضمن للعابر سفراً مريحاً.

أقام الحكيم بالحصباء وحبيبات الحصى عروشاً في الظلمة. ثم أطاح بها بضربة مفاجئة. لم يمدّ يده ليعيد جمع الحجارة المبعثرة. لأن اليد ظلّت ترتجف بشدّة. ارتجفت قبل أن تتسلل إلى الستار الذي يحتجب فيه المولى عن الأنظار. تلاحقت في صدر صاحب اليد الأنفاس. ضاق الصدر بالأنفاس. ولكن اليد التي تتقن البحث عن الحجارة والحصى في أشدّ الظلمات حلكةً لم تتوقف عن البحث. تسللت إلى

الستار، وجدت طريقاً وراء الستار. فتّشت وراء الستار. عبرت كل الستور. وقبضت على يد المولى. قبضت بشدّة لا تتناسب مع وهن الأبدان الخالدة. شدّدت القبضة حتى أفلتت من صدر المولى آهة وجع. عندها تكلّم الحكيم بصوت غريب:

ـ أنا أيضاً جئت من صلب ابنة اقترنت بالأب فكان لي الأب جَدّاً وأباً أيضاً. هذا هو سر خلودي!

استمرّ الفحيح من وراء الستار. أنفاس الفحيح عصفت باللفافة فرفرفت وارتجفت فلفح وجنتي المولى نسيم كصهد القبلي.

قبضة اليد تراخت أولاً. ضعفت سلطة الأصابع، وتخلّت عن المعصم بمهلٍ شديد. وعندما تخلّت الكفّ عن عظمة المعصم المغمورة بالعرق أحسّ صاحب المعصم أن المعصم مطوّق بسوار من جمر.

اختفت اليد، تراجعت الأنفاس. ولكن الحكيم تكلّم من مسافة قريبة جداً، كأنه يلصق شفتيه بأذنه:

ـ ها أنا ذا أذيع سرّاً جاهدت في إخفائه أجيالاً. كذبت كثيراً عندما سألني الناس عن سرّي. قلت دائماً إن سرّي في أني لا أملك سرّاً. وهي كذبة كان من السهل اكتشافها لو استخدم

أهل السؤال كرات الحنظل المقلوبة فوق مناكبهم كما أحسن مولاي القول منذ قليل، لأنّه لا وجود لإنسان في الصحراء لا يبيّت في جوفه سرّاً. ولكن ما يبرر أكاذيبي هو أني كنت مخلوقاً ككل المخلوقات يريد أن يحيا. ومولاي يعلم أننا نفقد الحياة في الساعة التي نذيع فيها سرّنا. وها هي رقبتي الآن في يد مولاي.

ـ ينسى الحكيم أن رقبته كانت في يدي دائماً، ولكني لم أمْسَسْها يوماً بسوء.

ـ الآن اختلف الأمر. إذا كشف المرء سرّه حاق به الخطر. ولكن العزاء هو أني فعلت ما فعلت راضياً، لأن الموت أهون من الاحتفاظ بالسرّ كل هذا الزمان.

ـ ما أقسى هذا!

ـ سرّي هو مديتي، إذا كشفت لك عنه، فقد وضعتُ في يدك مقبض المدية، ووجهتُ إلى صدري النصل. رقبتي الآن بين يديك!

ـ كف عن الهراء وحدثني قليلاً عن الخلود.

ـ نعم. على مولاي أن يعلم أن أبناء الآباء من بناتهم وبنات بناتهم لا يموتون أبداً. وفائي لسلالة أجدادك هو ما دفعني

للسير معك في السبيل المعادي للناموس.

- إني أفرك يدي شماتة بأهل الشماتة. إني أفرح حتى أنّي سأرقص طرباً. ولكنك تحدّثت منذ قليل عن المكيدة.

- نعم يا مولاي، لا يردّ المكيدة إلا المكيدة. لقد جاءت السعادة إلى الصحراء في ثياب أنثى من بنات الإنس لتصنع ناموس الأنثى. قالت إن الذكر كدبّور النحل وُجد ليزول، أما ما يمكث في الصحراء، فهو ما أودع في رحم الأرض لأن الأرض أيضاً أنثى. قالت إن البذار تبيدها رياح القبلي إذا لم تهرع الأنثى لإخفائها في الرحم الرحيمة. قالت إن الحياة مهدّدة بالفناء إذا لم تحتضنها الأنثى بين فخذيها، فصدّقها البلهاء، وروّجوا للادعاء، وأقاموا للأنثى الأنصاب، وصنعوا من الإناث إلٰهات، وعبدوا الحسناء، وسلموا أمر الناموس للعرّافات والكاهنات، وانطلت الخدعة على الأجيال، فرجمت الأمم كل ما لم تكن له الأنثى أصلاً بالبهتان. ولم يفكّر أحد يوماً بأن يتولى الأمر، ويقلب السحر على رأس تلك الساحرة الشريرة، بأن يجرّب الشريعة الأخرى، وحتى أسلافي الذين جرّبوا، فعلوا ذلك سرّاً، خوفاً من بطش الأُمَّة الحمقاء. أفلم يحن الوقت، يا مولاي، لأن ننتقم للأب المغدور ونقلب العلامة رأساً على عقب؟ ألا ترى أن مكيدتنا

هي تصحيح للجرم القديم الذي بلتنا به الأنثى فكان علّة شقائنا؟

ساد الصمت. تكلم المولى في الركن:

- أنا لن أخسر. أنا سأكسب ثلاثاً. مرّة بطعن الناموس. ومرّة بردّ الشماتة إلى نحر أهل الكيد والشماتة. ومرّة بضمان الخلود في السلالة الأبديّة. هيء هيء.. ولكن قبل أن ننتهي من وضع آخر حجر في بنيان المكيدة أردتك أن تأتيني بالساحر. بالسحرة. لا أريدك أن تأتيني بسحرة القبيلة البلهاء، ولكن بالسحرة الحقيقيين. بأولئك الذين يسكنون ظلالهم، ويسافرون من بلاد الأدغال برفقة القوافل. هل فهمت؟

41

جاءه بالسحرة.

هام في الخلاء. رافق الرعاة إلى المراتع البعيدة، ورابط في مفترقات طرق القوافل القادمة من بلاد الأدغال، أو العائدة من الشمال في طريقها إلى ممالك الجنوب، أو القادمة من محيط الغرب المجهول في طريقها إلى أوطان الشرق البعيد. يختلي بأرباب القوافل على انفراد. يغويهم بالكراء السخيّ حتى يبوحوا له بسرّ الرفقاء. لأنه عرف من طول معاشرته للأجيال أن

السحرة الحقيقين لا يكشفون عن مهنتهم للأغراب كما يخفون أسماءهم الحقيقية أيضاً. وقلّة منهم تكشف عن نفسها لصاحب القافلة لقاء عهد جسيم. ولكنه يئس في استدراج أصحاب القوافل بإغراء العطايا، فاحتكم إلى الكنز الذي اكتسبه من زمان قضاه برفقة الأجيال قبل أن تبيد الأجيال. تربّص بالوجوه، وقرأ الإيماء في العيون، فاهتدى إلى سحرة كثيرين في زمن أقصر بكثير.

في المرّة الأولى جاء للمولى بساحر أعاده من وراء قافلة عائدة إلى محيط الغرب، فجالسه المولى في خلوته الليلية، فلم يعرف ما دار بينهما، لأنه كان يتسكّع في العراء المجاور، عندما فوجىء بالضيف يقفز من الخباء غاضباً، ويسرع ليسرج جمله وهو يصيح بصوت منكر لم يجزه ناموس السحر يوماً: «أعرف سحراً يصلح لانتزاع الكنوز من أيدي الجنّ، ولا أعرف سحراً لغاية الإيقاع بأهل الخلاء! خُلق السحر لاسترداد الكنوز من أهل الخفاء، ولم يُخلق السحر ليكيد به الإنسان لأخيه الإنسان!» أقبل عليه محاولاً أن يتدارك الأمر ويعرف الدافع الذي استوجب السخط، ولكن الساحر استوقفه بإيماءة صارمة. هَرجَ مستنكراً: «كيف يقدر جلالة المعمّر أن يأمن جوار مخلوق كهذا؟ كيف يستطيع مولانا الجليل أن يثق في إنسان لا يثق في إنسان؟

كيف.. كيف.. احترس! وصيتي لمولانا الأقدم من كل القدماء أن يحترس!». ثم امتطى دابته وانطلق في الليلة نفسِها.

حظّ الساحر الثاني لم يكن أهون من حظّ الساحر الأوّل.

جاء به من وراء قافلة قادمة من الشمال. استضافه أياماً، ونحر على شرفه القرابين، وجاء له بالإماء فعزفن له على وتر الحنين ألحاناً فز من عينيه بسبب لذّتها الدمع. ثم أدخله على المولى.

جالسه المولى الليل كلّه، ولم يخرج الساحر من خباء الظلمات إلا مع ميلاد القبس. ثم عاد وجالسه في الليلة التالية أيضاً حتى مطلع الشمس.

اعتكف في الخباء الذي أمر المولى بنصبه له في الخلوة المجاورة. اعتكف طوال النهار، وعند حلول المساء عاد لمجالسة المولى في الخباء للمرّة الثالثة. لم يعرف أحد كم من الوقت استغرقت الزيارة. ولكن اليقين أن الاجتماع انفضّ في قلب الليل، لأن الضيف اختفى، فلم يشاهده رعاة الإبل الذين ينهضون من نومهم جدّ مبكّرين، فيدخلون المرابط في ظلام الليل ليتأهبوا للخروج بالقطعان إلى المراعي الأبعد. عندها فقط قرر أن يتولّى الأمر بنفسه، فأتى بساحر عارٍ إلا من قطعة جلد

تستر عورته، وحشد من تمائم الودع تكسو رقبته ورأسه ومعصميه ورسغيه أيضاً.

جالسه طويلاً قبل أن يأذن له بالدخول على المولى.

42

أقبل على الخباء بعد اختفاء الساحر الأخير بليلتين.

وجد إماء تنتحب في المدخل، وعجائز العبيد تقتعد الأرض في الداخل وتهدهد التراب بالأيدي لمحو الشرّ. قلن همساً إن المولى أطلق قهقهة منكرة أخرى فتوقعن شؤماً. أمر المولى بإخراجهن من الخباء ما إن بلغه نبأ وصول الحكيم، فتقدّم إلى الخباء الداخلي، وتربع وراء الحجاب. صرف الحاجب الذي يقوم على خدمته فالتحف الخباء بلفافة أخرى من السكون. في الخارج أيضاً أوى الناس إلى الأخبية، وتحلّق بعضهم حول المواقد الخابية، وشيّعت القلّة عيوناً دامعة إلى السماء لتقرأ أنباء الزمان في جحافل النجوم.

حلّ سكون منتصف الليل.

لم يتكلم المولى فتلهّى الحكيم بمطاردة الحصباء في الأرض الملفْوفة بالظلمة. يلتقط حبّة هنا، ويزحف بأصابعه

يميناً ويساراً ليستخرج حصاة هناك. بدأ يشيد معاقله المجهولة صامتاً.

استمرّ الصمت طويلاً.

ظنّ الحكيم أن المولى قد نام. ولكن أنفاساً سخيّة ظلّت تتلاحق خلف الحجاب جعلته يجزم بيقظة وليّ الأمر.

استمرّ الصمت زمناً أطول. أقام الحكيم صروحه مرّات، وأطاح بها مرّات.

يئس أخيراً وهمّ بأن ينصرف.

تكلّم المحتجب فجأة. سمع صوتاً غريباً لم يسمعه من فم المولى يوماً. هل هو نداء يجيء من قاع أعمق الآبار؟ هل هو صوت ابن من أبناء قبائل الخفاء؟ هل استبدل السحرة المولى بمخلوق آخر كما يروق لدهاة هذه الملّة أن تفعل؟

قال النداء:

- عمَّ يتحدث الخلّ إلى الخلّ بعد الفراق الطويل؟

كان السؤال غريباً أيضاً كصاحب السؤال، كالصوت الذي أطلق السؤال. هل المولى هو الذي يتخفّى وراء الستور، أم داهية الأدغال هو الذي يتكلّم بعد أن تبادل الدور مع وليّ الأمر؟

ولكنه أجاب في الحال:

ـ وهل هناك حديث، بعد الفراق الطويل، أكثر لياقة من أحوال الصحراء يا مولاي؟ لا يتحدّث الناس بعد الفراق الطويل إلا عن الجدب والقبلي ومسلك النجوم.

ـ أعترف لك بأنك أجبتني عن سؤال حيّرني طويلاً. ولكن عمَّ يتحدث الخلّ إلى الخلّ عندما تحين ساعة وداع لا لقاء بعده؟

ابتسم الحكيم في الظلمة. أجاب حالاً:

ـ عن أحوال الصحراء أيضاً يا مولاي: الجدب، القبلي، مسلك النجوم.

ـ أحسنت. أجبتني عن أحاجٍ حيّرت القبائل. حقّاً إن مفتاح اللغز على لسان الحكيم. حقّاً، كما قيل في الوصايا القديمة، إن الجواب للسان الحكيم أقرب من مقبض السيف ليد الفارس.

استمرّ الحكيم يبتسم بغموض. يعاند حبيبات الحصى ويتبسّم في خفائه. قال بصوت آخر أيضاً:

فلنتحدّث عن أحوال الصحراء يا مولاي.

جاء ردّ المولى سريعاً:

ـ أجل. حان ميعاد الحديث الأبدي عن أحوال الصحراء.

غنّى الحكيم بصوت ليس صوت الحكيم:

ـ إذا أينع النبت في الصحراء فإن القبلي يهبّ، والجدب يحلّ، والنجوم تبدأ في تدبير مكيدة أخرى.

ـ هيهات أن يدوم في الصحراء حال!

ـ هيهات أن يدوم تحت قُبّة السماء حال!

ـ في صدري أخفي السرّ، فهلا أملت أذنك إليَّ؟

كبرت ابتسامة الحكيم. ازدادت البسمة غموضاً. ولكن الظلمة ابتلعت الغموض كما أخفت البسمة. زحف نحو الخباء. لامست ركبتاه الحجاب. مدّ رأسه حتى صدم الستار. قال بصوت لم يكن صوته يوماً:

ـ ها هو العبد بين يدي مولاه أخيراً!

ارتفعت الأنفاس في الناحية الأخرى من الستار. تحوّلت الأنفاس فحيحاً مميتاً أقبح من فحيح الحيّة. و.. اخترق الحجاب النصل ليستقرّ في نحر الحكيم. ترنّح «بوبو» في جلسته كأنه تمايل طرباً للحن، ورفع يداً هزيلة ليتحسّس المقبض المشدود إلى نصل مغروس في النحر إلى منتصفه. ردّد بانتشاء أهل الوجد:

ـ أخيراً!

ثم أضاف وهو يترنّح:

ـ كنت أعرف أنك ستفعل هذا يا مولاي.

تكلّم الصوت الغريب من وراء الحجاب الممزق بضربة المدية:

ـ كان لا بد أن أفعل ما فعلت، فاغفر لي!

ترنّح الحكيم. كبرت بسمة الغموض على شفتيه. قال:

ـ مولاي لن يحتاج إلى غفران عبده الذي امتلكته يمينه. مولاي يجب أن يفعل ما فعل لأن الإنسان لا يميت إلا من أحبّ.

ـ هل آمنت بهذا أيضاً؟ ظننت أنني الوحيد في هذه الصحراء الذي يرى أن الإنسان لا يقتل إلا من أحبّ أكثر مما ينبغي.

ـ آه يا مولاي! أنت لا تستطيع أن تتخيّل كم هو موجع أن يحيا الإنسان طويلاً. مولاي لا يتخيل كم هو موجع أن يحيا الإنسان!

ـ أجل يا أحبّ الخلان. أنا لا أتخيّل كم هو موجع أن يحيا الإنسان فحسب، ولكني بدأت أدرك ذلك منذ زمن بعيد. موجع جداً أن نحيا، ربما لهذه العلّة نرفع نصل المدية لنطعن من نحبّ.

ـ ثم أليس أهون للإنسان أن يموت على أن يحتفظ بالسرّ طويلاً؟

ـ ولكنّك أطلقت سراح السرّ يوم أخبرتني..

ـ هل يعتقد مولاي أنه يستطيع أن يرفع في وجهي المدية ليطعن نحري بالنصل لو لم أخبره السرّ؟

ـ الحقّ أني لم أفكر في أمر السرّ أبداً.

ـ وهل يظنّ مولاي أنه يستطيع أن ينال مني مقتلاً لو لم أتنازل له عن سلاحي؟

ـ سلاحك؟

ـ المدية!

ـ أية مدية؟

ـ المدية التي تستقرّ الآن في نحري!

ـ لا!

ـ أشفقت عليك يوم بدأت تفاوض السحرة، وعرفت أن الأمر سيطول كثيراً بسبب غلبة الزور وقلّة أهل الأصالة في حرفة السحر وفي كل الحرف، فوضعت مديتي في يد ساحر الأدغال لأخفّف عن مولاي جهداً، وأعجّل الأمر. لا يعيش المرء أجيالاً إذا لم يدرك نوايا الخلق!

ـ لا!

ـ المدية ورثتها عن السلف. والسلف ورثها عن السلف. الجدّ قال لي يوم وضعها في يدي: «في لسان المدية سرّ حياتك ويوم مماتك، فاحترس أن تقع في يد الأغيار يوماً!» طوقتها في الساعد، تحت كُمّ الجلباب، بسير طازج من جلد الجمل، وعندما تيبّس جلد البعير أصبحت المدية مع جسدي عضواً واحداً. ولكني تنازلت وسلختها من الجلد سلخاً يوم حان الميعاد.

ـ لا!

حشرج الحكيم، تسلل الدم الشحيح إلى الحلق فاختنق بالسائل اللزج، المتخثّر، الحار. ولكنه أحاط المقبض الخشبي المدسوس في غمد الجلد بكلتا يديه. تمايل كالمجذوب على اللحن المجهول. قال:

ـ ولكن أسلافي دسّوا في المدية سرّاً آخر لم أخبر به مولاي لأني لم أضمر له سوء النيّة يوماً.

دسّ يده اليمنى في جلبابه. أخرج جسماً ملفوفاً في قطعة جلد. قدّمها للشبح المدسوس في الركن الآخر. دفعها في الشقّ الذي حفره لسان المدية قبل أن يستقرّ في نحر العجوز. حشرج بصوت بحيح:

ـ للمدية لسان آخر يا مولاي. للمدية لسان يجاور اللسان المغروس في رقبة عبدك الآن. ولو لم أنزع هذا اللسان من المدية لترنّح مولاي إلى جواري أيضاً لأن النصل الثاني سيرتد إلى الوراء ليستقرّ في صدر الطرف المعادي.

ـ لا!

ـ لم أنتزع اللسان الثاني من المدية قبل أن أسلمها للساحر بسبب كراهة مني لمولاي (لأننا لا نقتل إلا من نحبّ كما اتفقنا) ولكن لأني لم أرد له المصير الذي أردته لنفسي قبل أن يكمل القران الذي سيأتي لسلالته بالخلود.

ـ لم أحبّ في هذا الخلاء مخلوقاً كما أحببتك. لستَ في حاجة لأن أسمعك هذا الكلام. سوف أفتقدك كثيراً!

ـ ولكن لماذا ظننت بي السوء؟

ـ السوء؟

ـ لا تقل لي إنك أعددت مكيدتك لتسكتني إلى الأبد كما أسكتَّ «يهور» بقطع اللسان، وكما أسكتَّ «أفّر» قبله بالطريقة نفسِها.

ـ لم أفعل بك ما فعلت إلا لأدفن معك السر حقّاً.

ـ أعطيك الحقّ في ألا تثق بإنسان يحمل تلك العضلة الكريهة

بين فكّيه، وأشعر لك بالامتنان حقّاً لأنك لم تعاقبني بقطع اللسان كما عاقبت بقيّة العبيد لأنك تعرف أن استئصال عضلة الفكّين أسوأ ألف مرّة من طعنة المدية، ولكن شكوكك الحقيقية ليست في مكان آخر. شكوكك في ارتيابك البعيد باستحالة إزالة الناموس إذا لم تطعن نحر الإنسان الوحيد الذي سلّمه الزمان عبء الناموس.

- أعترف لك بأني لم أصدّق كلمة واحدة مما قلته بشأن العداء للناموس. لم أصدّق روايتك العجيبة عن مكيدة الأنثى، وكذّبت نواياك المزعومة في كتابة الناموس من جديد. أحسست بالخطر فرأيت وجوب الفراق.

- وبرغم ذلك فإني لم أكذبك النبأ يوماً.

اختنق بالدّم. حشرج بجهد بطولي:

- فات الأوان الآن لكي أقول لمولاي إنه أخطأ إذ لم يصدّق أكثر عبيده وفاءً. ولكني لا أخفي سعادتي بما حدث. السعادة هي ألا نندم على أيّ أمرٍ حدث. أنا سعيد يا مولاي مرّة أخرى لأني لا أريد أن أعيش.

- ظننتُ يوماً أن العيش هو الشيء الوحيد الذي لا يملّه الإنسان أبداً.

- العيش الطويل أشدّ وجعاً من كل وجع، ما أشدّ وجع الخالدين يا مولاي.

سأفتقدك كثيراً.

لأولئك الذين يُجرّون لملاقاة النصال دائماً رغبات صغيرة. هل.. هل بوسع مولاي أن يلبّي لعبده القديم أملاً أخيراً؟

- هذه هي الساعة الوحيد التي يلبّي فيها السيد رغبات العبد لأن العبيد يصيرون سادة عندما يحين ميعاد الفراق الأبدي.

- أردت أن يشفق مولاي ويدفع نصله في النحر حتى آخر المقبض. أريد أن أضع حدّاً لهذا اللهو الذي لا أذكر له بداية..

- السمع والطاعة!

المولى سمع حقّاً، ولكنه لم يُطِعْ. حاول أن يستعير دور العبد ويصير مطيعاً مرّة واحدة في كل الحياة، ولكن طبع السادة غلب تطبّع العبد. مدّ يداً راجفة عبر الحجاب الممزق. أخرج يده من الشق، ولامس بأصابعه المقبض. سرت في أطراف الأصابع رعدة. التقمت الأصابع المقبض المستور بالجلد. اشتدّت الرجفة فاسترخت الأصابع وفشلت في الالتئام حول المقبض المتوّج بمثلث الرّبة «تانِيَتْ». بذل جهداً بطولياً،

وتساءل عن سرّ تسابق الإنسان للفتك بإنسان لا يريد له أن يموت، فإذا اكتشف عند الضحيّة إرادة الموت طوّحته خيبة الأمل. فلماذا يقتل الإنسان من يريد أن يحيا، ويحجم عن قتل من يريد أن يموت؟ أليس هذا دليلاً على أن الإنسان سيبقى للإنسان عدوّاً إلى أبد الآبدين؟ خارت قواه، وأطلق صوتاً موحشاً كخوار شاةٍ تُذبح. حشرج القتيل بصوت يختنق بالدمّ:

ـ ظننتك قادراً على تحقيق رغبة عبدك الأخيرة..

طوّق الحكيم المقبض المتوج بشارة معبودة الصحاري، وأطلق صيحة تشبه صيحات الأبطال عندما يأتون عمل البطولة، ثم دفع النصل إلى أقصى حدّ. توقفت الحشرجة الموحشة. سكنت الأنفاس الخالدة. تواصل سكون الخباء في سكون الخلاء.

43

استلّ المدية من النّحر. أزال عنها الدّم بثوب الضحيّة. تناول لفافة الجلد الأخرى. زحف بالقطعتين إلى المدخل. المدية في اليد اليمنى، واللفافة الجلدية في قبضة اليد اليسرى. تحت ضياء الأنواء تفقّد سرّ السلاح السحري. تبيّن شقّاً دقيقاً مخبوءاً في النتوء الذي يقف سدّاً يمنع اليد من الانزلاق إلى

النصل. استخرج النصل السرّي الملفوف في قطعة الجلد. دسّ اللسان في الفتحة الضئيلة التي لا تكاد تُرى.

غاب اللسان في التجويف الخفيّ. وتبدّت المدية نصلاً مديداً، متوحشاً، غامضاً، وحيداً، واحداً، كأنه لم يعرف لؤماً، ولم يخفِ في بطنه قريناً ثانياً مساوياً له في الطول، مطابقاً في المفعول، مضاداً في الاتجاه.

أعاد السلاح إلى الغمد، زحف إلى ركن الخباء، عبث بالمتاع، بعثر اللوازم، عاد من هناك بفأس صغيرة. توارى وراء الستار وشرع يحفر التراب. حفر كثيراً، استخرج تراباً سخياً، ولكن الفأس أدركت في القاع صفائح الصلد. حفر يميناً، ثم جرّب الرقعة السفلى، ولكن ألواح الصلد استلقت في كل مكان، فأدرك أن طبقة الطين في المكان قشرة هزيلة جدّاً. توقّف عن الحفر وتفكّر مهلة. خرج إلى الجسد. جرّد البدن من الثياب. جرّ البدن الهزيل، الهشّ، إلى الحفرة داخل الحجاب. كان خفيفاً ككوم من القشّ، كحزمة من أعشاش الطيور. أين كان يخفي هذا الكائن الهشّ الحياة؟ أم أن الحياة لا تألف إلا الأبدان التي لا تملك من طبيعة الأبدان إلاّ الاسم؟ الحياة لا تروم إلا الأجرام التي لا تملك من الأجرام إلاّ صورة الأجرام. الحياة تستكين في الأمكنة التي تبدو بلا حياة.

وضع الجسد في الحفرة. أهال التراب على الجسد. ولكن الحفرة السطحيّة لم تُؤوِ البدن برغم ضآلة الجرم. استعار تراباً من خارج الحجاب وبدأ يقيم عرشاً كعروش القرناء في ليلة استقبال القرينة. أقام في وسط الخباء عرشاً جليلاً. وضع على الضريح البديع نطعاً من جلد نادر، وفرش فوق النطع الجلدي جلوداً منمنمةً بالزخرف والعلامات المقدّسة وتمائم الأسحار. في رأس العرش الذي يجاور ركيزة الحجاب ثبّت وسادة جلدية مستطيلة ملوّنة وموسومة أيضاً بالرموز.

تمدّد فوق العرش الجليل الذي قدّسه الأسلاف في ناموسهم كما لم يقدّسوا شيئاً في الصحراء. قالوا في الوصايا القديمة إنه حَرَم لأن بذرة السلالة أودعت في الرحم يوماً في هذا المكان، ولكنه مكان خطر أيضاً يغزوه خصوم الخفاء للحيلولة دون تناسل الأعداء. لهذا السبب توارثت الأجيال عادة حماية الحَرَم بالنصال إرهاباً للجنّ.

استلّ المدية من الغمد. رشقها في التراب، بجوار الوسادة، بحذر خوفاً من قفز النصل السرّي إلى جهة الضدّ، إلى جهته هو.

قال بصوت مسموع:

ـ الآن تستطيع الطبول أن تُقرع، والألسن أن تزغرد، والحناجر

أن تغني، والمهاري أن ترقص، والصبايا أن يغسلن جسد العذراء بماء الزهور، لأن ميعاد القِران الذي طال انتظاره قد حلّ أخيراً!

44

جاءه «أَكَنَار». أقبل الحاجب الأثير. كان مارداً معمّماً بزمالة سوداء، يطل منها أنف ضخم. ينحسر ثوبه الأسود عن يدين حديديتين. وقف في المدخل. خاطب ظلمات الداخل:

ـ جئت مولاي بحليب النوق.

فسمع ردّاً صارماً:

ـ انتظرتك أن تأتيني بالخبر اليقين عن الحكيم لا بكوز الحليب.

صمت الحاجب. قال بعد مهلة:

ـ ما من خبر جديد يا مولاي بشأن الحكيم، ولكن العبيد والرعاة يجوبون الأنحاء بحثاً عن الفقيد.

ـ لم يكشف لي عن نيّة للخروج إلى الصحراء.

تردّد الحاجب. وضع الكوز بجوار الركيزة. رأى المولى كيف فرَكَ العبد يديه بقساوة. رآه في ظلمة الليل والخباء بعين الحيّة التي ترى فرائسها في ظلام الليالي بوضوح أكبر من الرؤية

نهاراً. رآه يتلوّى فأدرك أن الشقيّ يخفي أمراً. لا يحسن العبد إخفاء سرّ عن المولى. شجّعه بأمر صارم:

ـ تكلّم!

استمرّ العبد يعاند يديه. يفركهما. يصلبهما حول صدره. يتركهما فيسقطان كالعصيّ إلى أسفل. ثم يعود فيرفعهما ليشبكهما من جديد. أعاد المولى أمره الصارم:

ـ أمرتك أن تتكلّم!

ـ الحق أني لا أعرف ماذا أقول يا مولاي!

ـ بل تعرف. أنت تريد أن تخبر مولاك بأمرٍ تخفيه.

زفر الحاجب بشقاء. قال بيأس:

ـ أحدهم قال إن آخر مرّة شوهد فيها الحكيم كانت في تلك الليلة التي دخل فيها خباء مولاي!

ـ مَنْ القائل؟

ـ لا أعرف أول مَنْ قال. ولكن القول الآن يجري على ألسنة كثيرة يا مولاي.

ـ إذا لم تأتِني بخبر أول من قال القول نزعت لسانك من أصله يا شقي!

انصرف المسكين.

العبد المسكين لم يعلم أنه فقد عضلة الحياة التي تتلَوّى بين

الفكين، لأنه لم يدرك جبلّة المولى الحقيقية برغم العشرة الطويلة. فبعد يومين أخبر مولاه باسم أوّل من جرى على لسانه القول، فأمر باستئصال لسان القائل ولسان الحاجب أيضاً!

45

بلغ الفرح ذروته.

في الليل تتجمّع الصبايا لتقرع طبول «تيندي»، وتتغنّى بالبطولات والعشاق الذين لم يعودوا من الأسفار إلى بلاد المجهول، وأحزان الباحثين عن «واو» وعن الحنين الذي يفترس قلوب كل الصحراويين. تتغنّى منذ الصباح حتى حلول السحر، فيرقص الصبيان، ويقع الشعراء وضعاف النفوس في الوجد فيحجلون حول حلقة المغنيات، يحثّون الصبايا على التصفيق، أو يحتجّون على لحنٍ من اللحون بدقّ الطبل بقبضاتهم، أو يطالبون بمزيد من الألحان ليرتووا برغم أن الفجر يدهمهم دائماً قبل أن يرتووا، فيقيدوا بحبال المسد نهاراً في أخبية تقام خصيصاً لتأتي الصبايا مع حلول المساء يحملن في ألسنتهن الترياق الذي سيحرر الشعراء من الأسر.

بجوار خباء الأب، على بُعد لا يزيد عن بضعة أمتار، انتصب خباء القِران.

كان أهل الشماتة قد صدّقوا أخيراً أمراً ظنّوه طوال الوقت طوراً جديداً من أطوار «سليل الظلمات»، كما كانوا يسمّون خصمهم القديم، ففرحوا، وضربوا الأكف بالأكف، وتندّروا كثيراً مدّعين أن صاحب الأهواء لا بدّ أن يدفع أقسى الأثمان للهوى، وليس في الصحراء كلّها ثمن أسوأ من أن يرى الأب النبيل ابنته الوحيدة تنام بين أحضان عبده لتنجب له منه حفيداً يحمل اسمه عنواناً لعاره الأبدي. ولكن سليل الظلمات كان يتضاحك بلؤم الداهية «وانتهيط» ويردد لهم الكيد ساخراً: «الأنثى ورطة. أنتم لن تنكروا أن الأنثى ورطة كبيرة. وعلى من يرزق بأنثى أن يسلمها لأقرب رجل. أي رجل يحمل عضلة بين فخذيه يصلح قريناً لهذا المخلوق. أي ذكر يصلح قريناً للمرأة. حتى قرد الأدغال قرين مناسب للمرأة!» يبعث بوصاياه إلى أكابر القبيلة، ويستلقي على وسادته الجلدية ليقهقه بأعلى صوت. يقهقه قهقهات تزلزل أركان الخباء، فينفضّ من حوله العبيد فزعاً، وتنتحب الإماء خوفاً، وتسرع العجائز بدفن أيديهن بالتراب لإبعاد الشؤم الذي يستدعيه رب كل بيت إذا ملأ شدقيه بالضحك الكريه.

في تلك الليلة التي علت فيها رعود الزغاريد، واستوت أنساق اللحون في حناجر الصبايا، وبلغ الفرح ذروته، واقترب

ميعاد تسليم القرينة في يد القرين إلى الأبد، في تلك الليلة تمادت جيوش الديدان، واقتحمت العرش الترابي من كلّ جانب.

في المرّة الأولى التي دبّت فيها هذه المخلوقات القبيحة على العرش قال له أحد العبيد الذين يتولون تنظيف الخباء:

- من الخباء تنطلق رائحة لا تُطاق يا مولاي.

سكت ثم أضاف:

- رائحة غريبة. رائحة أدركت الأخبية المجاورة وسرحت في الخلاء. رائحة الجيف. أنا على يقين يا مولاي أن ثمة فأراً نفق في ركنٍ من أركان الخباء. فهلا أذن لي مولاي بتفتيش الأركان؟

سكت. تظاهر باللامبالاة في البداية. ولكنه هبّ بالعبد فجأة:

- كيف تجرؤ على الادعاء بوجود رائحة عفن إذا كنت لا أشتم إلا رائحة زهور الرتم يا عبد العبيد؟ احترس يا شقيّ، احترس! إذا عدت إلى هذه السيرة الكاذبة استأصلت لسانك من أصله!

أصيب العبد بدهش شلّه طويلاً. وعندما أدرك هول القصاص الذي ينتظره انهار أرضاً وتوسّل باكياً:

- فليغفر مولاي لعبده البائس زلل اللسان. أصدق مولاي بأنها

عضلة شقيّة حقاً، وتستحق القطع لأنها لا تُعقل بعقال، ولا بد أن تنفلت لتقول قولاً منكراً. أنا لا أدري، يا مولاي، كيف تجاسرت وتحدّثت عن عفن في دار ولي نعمتي ونعمتها؟ أنا بين يدي المولى لنيل القصاص. عبدك يا مولاي يستحق أن يفقد اللسان لأنه يريد الأمان!

أمره في البدء أن يبتعد. ثم استوقفه وأمره أن يوقد النار بعيداً ويأتيه بحبّات الجمر.

اعتاد أن يأمر بإشعال النيران في العراء أو قبالة الأخبية الأخرى، ليأتوه بالجمر تجنّباً لضياء اللهب الذي لا يُطاق.

ليلتها جاءه بمنقل الجمر أيضاً. دلق القطع المتوهجّة في الموقد وانصرف. تسلل من الحجاب وبدأ العراك مع الديدان. كان يراها في الظلام بوضوح شديد. يراها بعين الحيّة التي سكنت الجحور وأَلِفَت ظلمات صارت لها نهاراً. يراها وهي تندفع من أطراف المفارش السفلية. تتسلّق الرقع الجلدية، أو تسرح في المساحات التي تفصل عرش الحَرَم عن ستار الحجاب. تتسلّق الحجاب، ولكنها تسقط أرضاً، فتسعى من جديد بالعناد نفسه. تتسلّل تحت أطراف الخباء، أو تنحرف يميناً نحو المساحة المؤدية إلى ركيزة الستار، أو يساراً نحو امتداد الحَرَم السفلي. ديدان سمينة، رجراجة، لها لون سماوي

تقريباً، وربما سماوي يميل إلى الاخضرار، لأن الكائنات التي تلفظها العفونات للتوّ لا لون لها، ربما لأنها استعارت كل الألوان. لاحظ ذلك في الديدان، كما لاحظه قديماً في الذباب المدفون في الجيف وفضلات العراء. لكن ما أدهشه في ديدان العرش ليس اللون المثير للاشمئزاز، بل الحجم الهائل. الدودة الواحدة في حجم حيّة صغيرة. بل إنه لا يعرف لماذا أحسّ طوال الوقت أنه لا يؤوي ديداناً في مخدعه، وإنما يعارك صغار الأفاعي. وازداد هذا اليقين عندما تناول حفنة من الجيوش ورمى بها في جحيم الجمر. تلوّت أجسامها المثيرة للغثيان. تنكمش حول نفسها في قلب الجحيم. ثم. . ثم تنفجر بصوت عالٍ كما تنفجر بعض الحجارة في مواقد النار. تتشتّت أشلاء، وينتشر سائلها اللزج، الأزرق، في الفراغ، لينشر في الهواء عفناً يصيبه بالدوار. زحف إلى المدخل وتقيأ. ولكنه عاد ليبدأ العراك من جديد.

استمرّ العراك كل ليلة.

ولكن غزو الديدان لم يتوقف.

46

في ليلة الفرح خاض عراكاً مع جيوش الديدان فاق كل عراك. لوّثته السوائل الكريهة، واختنق بالعفن، فتقيّأ كثيراً، وبدّل

لباسه كلّه، قبل أن يتمدّد فوق الحرم ليستريح. استعاد أعوام الانتظار الطويل، وتذكّر القرينة التي أخذها منه أهل الكيد والحسد، واكتشف أنه لم ينسها أبداً، ولم يتوقّف عن حبّها يوماً. تساءل عما إذا كان قد فعل ما فعل انتقاماً من الخلق والخصوم وأهل العداء، أم أن الدافع لم يكن سوى رغبته الجنونية في استرداد القرينة الفقيدة من خلال ابنتها، في إحياء المعشوقة من خلال الاستيلاء على ابنتها. تبسّم وقال لنفسه أن لا معنى لذلك الآن أبداً، لأن الشمس لا تعود إلى الوراء، وهو لن يستطيع أن يبدّل الأمر، ولن ينفخ الحياة في عظام الحكيم، ولن ينقذ الناموس من الطعن الذي هيّأه له قديماً. ما سيفعله الآن هو العودة إلى الواحة. ما سيفعله الآن هو أن يمدّ يده إلى جيبه ليستخرج كنزه. ليتلذّذ بترياقه. ليستمتع بعشبته الخفيّة التي لم يذقها أحد، ولم يجدها أحد. العودة إلى الواحة تبدأ بالعشبة الليليّة. السبيل إلى الأمان يبدأ بتناول مسحوق الجنّ. تتخلخل بعدها الأجرام في الصحراء، وتسترخي الكائنات. تنغسل مقلة العين بضوء النجوم ويبدأ الاستئثار بالخلاء. يتقوّس الأفق ويتقوّس. تتلاحم الدائرة في قمقم مزموم في الاستدارة، فتبدأ السيرة. يتلقّف المعصم بكفّ من حديد. بكف العشبة الجنونية. يلتئم مع جرم القران فوق ضريح الحرم. الجسمان المحمومان

يشتركان في إماتة الفراغ المميت بالالتحام، بإغلاق الدائرة، بالعودة إلى الوضعية الأصليّة، ليبدأ البعث. يبدأ الميلاد. ميلاد ينجب فيه نفسه من نفسه. من صلبه. يجب أن يضيّع بذاره في الصُلب. لأنه إن لم يضيّع زرعه في صلبه فلن يجده يوماً. إذا لم يخفه في صلبه فلن يستطيع أن ينجب نفسه من نفسه.

في الخارج تعالت الزغاريد وازداد حماس الغناء.

اقترب الميعاد.

مدّ يده إلى الصرّة في الجيب. فكّ صرّة الجلد بهدوء. تناول من مسحوق العشبة المجفّفة حفنة. حفنة كبيرة. ألقى بها في فمه. بدأ يلوك العُقار. تسللت إليه دودة بضّة في حجم عقلة الأصبع، ودخلت من كُمّ الجلباب لتتشبّث بلحمة الإبط. انتزعها بيده الأخرى. أمسك بها طويلاً. كانت تتلوّى بين أصابعه وتحاول الإفلات. شدّد قبضة الأصابع. سحقها بِغلّ فانبثق سائل العفن وسال على أصابعه ويده وسقطت منه قطرات على ساعد اليد الأخرى. حشا يده في التراب أسفل العرش. دفنها في التراب الذي خرجت منه. غسل العفن عن يديه بالتراب. وعاد يحلم، و. . ينتظر. بعد قليل هاجمته دودة أكبر حجماً، ولكنه لم يأبه. لم يأبه لأن الحنين اشتعل، وسبيل السفر إلى الواحة قد ابتدأ.

في العراء هدأ الهرج.

انتقل الغناء إلى الخباء المجاور. إلى خبار «أفَّر». إلى عرش القرين المزعوم. غناء آخر. غناء حزين. غناء تلّة الصبايا وهن يسقْنَ الأنثى التي اختطفت يوماً من بيت الأب لتقع في حضن القرين. غناء صبايا لم يعرفن أن الأنثى التي بين أيديهن هي الأنثى الوحيدة، الأنثى الأولى والأخيرة، في كلّ الصحراء، التي لن يكتب لها أن تُختطف من الأب لتقع في حضن القرين.

مضى زمن.

عاد سكون الموت يستولي على العراء المستور بالليل وإيماء النجوم. لا يدري كم مضى من الوقت قبل أن يقتحموا عليه خلوة الحجاب. جاء بها أحد العبيد. جاء بها العبد نفسه. جاء بها القرين. جاء بها «أفَّر» المسكين. أحسّ نحوه بشفقة غامضة، ثم صرفه. ترك معصم القرينة في يده وانصرف. جلست بجواره على الحرم. تفحّصها بعين الحيّة التي تتبيّن فرائسها في أشدّ الظلمات كثافة وقال لها:

ـ ما أشدّ شبهك بأمّك!

ولكنها سدّت أنفها بلحافها واشتكت بفزع:

ـ ما أشدّ عفن المكان!

قال وهو يستمرّ في تفحص السيماء:

ـ حقّاً؟ ولكنّي لا أشمّ سوى رائحة زهور الرتم!

قهقه بأعلى صوت، وشدّد قبضته على معصمها.

47

زمن الحَبل عانت كثيراً.

غلبها الوحم، وعذّبتها الرؤيا.

التهمت كل ما وقع في يدها من أنواع الطين، بل وأرسلت العبيد إلى أنحاء بعيدة اشتهرت بأنواعٍ أُخرى تناقلت سيرتها نساء القبيلة الحَبالى، فاستجلبها الرجال من الغرب كما يستجلبون صفائح الملح من «مجزّان». فكانت تأكل الطين الناصع، وتغالب الدوار، وتتقيّأ في العراء المجاور للأخبية.

ولكن رؤيا الغزالة المسلوخة كانت أشدّ وقعاً من النهم إلى أنواع الطين، وأكثر إثارة للغثيان ونوبات القيء.

كانت رؤيا لجوجة، تداهمها في النهار بالإلحاح نفسه الذي تداهمها به في الليالي. خرجت لها أول مرّة في أيام الحمل الأولى. لم تظهر كجثّة تستلقي على الأرض كما رأتها آخر مرّة، ولكنها انتصبت أمامها على قوائمها الأربع، مسلوخة الجلد، ينز منها الدم وسوائل أخرى استفزّها السحل، العين اختفى منها الكُحل والفتنة. بل المقلة كلها اختفت . حتى ذلك

الجزء الذي استبقته الرحلة الوحشيّة ضاع من المحجر، ولم يخلّف إلا فراغاً صارماً، موحشاً، مقيتاً. فراغاً مبهماً يخفي وعيداً مجهولاً.

مع الأيام صارت الرؤيا شبحاً حقيقيّاً، شبحاً يومياً، شبحاً لا يفرّق بين الليل والنهار، شبحاً يحاصرها ويلاحقها بالوعيد. فكانت تتقيّأ، وتفرّ إلى المربية، أو الجارات، أو مجمع الإماء، أو أي مكان يكثر فيه وجود الخلق. ولكنْ الشبح كان يهرع لملاقاتها ما إن تختَلِ بنفسها، ولم يتركها حتى في اليوم الذي بدأت فيه أوجاع المخاض. بعد الولادة فقط تراجع الشبح. لم يختفِ بين يوم وليلة، ولكنه تهلهل في الوضوح، وتضعضع في الجرم، واختفى إيماء الوعيد في المحجر الخاوي. مضى يتلاشى ويهزل حتى غاب نهائياً. ولكن بهجتها باختفاء الغزالة لم تدم طويلاً. اكتشفت، بعد زمن قصير، أن الإيماء الذي زلزلها بالفزع المجهول قد انتقل إلى عين الوليدة. كذّبت نفسها كثيراً على عادة الأنام الذين لا يريدون أن يصدّقوا ما لا يرغبون في تصديقه. ولكن الإيماء لم يختفِ، ووجوم الطفلة الدائم زادها شبهاً بشبح الغزالة. كانت لا تستجيب لمداعباتها، ولا تضحك ولا تبتسم للألعاب، ولا تلتفت للدمى المحبوكة من قطع الكتّان وأعواد الحطب التي تبتدعها الإماء. تلاحق الخلاء

بنظرة غائبة، تومىء بصرامة خفيّة لا تتناسب مع حداثة العهد بالدنيا، في تلك الصرامة يتولّد إيماء الوعيد الذي ورثته عن الغزالة.

ورثت عن الغزالة الوعيد، وورثت عن الوالد غرابة الأطوار.

48

اعتادت أن تذهب بها إلى خبائه مرتين كل يوم: مرّة في الصبح، ومرّة في المساء. وعندما شبّت كانت تذهب لزيارته وحيدة، وبرفقتها في أحيان أخرى.

كانت قد اجتازت عتبة عامها الثالث عشر عندما كشرت عن أسنانها (كما تفعل إذا استبدّ بها الغضب) وغاب السواد من عينيها وأعلنت بتصميم وحشيّ:

ـ لن أذهب إلى بيت الجدّ!

انتهرتها بسؤال صارم في ذلك اليوم:

ـ ماذا أسمع؟

ـ لن أذهب إلى بيت الجدّ أبداً!

ـ لم تسمع الصحراء بإنسانٍ يرفض الذهاب لزيارة إنسان كان السبب في وجوده على ظهر الصحراء.

كزّت على أسنانها بقسوة، وتأهبت للانقضاض كذئبة حقيقية:

- لماذا تطلبين منّي الوفاء لإنسان يتباهى بقوله إن الإنسان لا يقتل إلا الإنسان الذي يحبّ؟

- ماذا تقولين يا شقيّة؟

- اسألي العبيد إن كنتِ لا تصدّقين. لست وحدي من سمع ذلك!

- ينقل العبيد عن أسيادهم أقوالاً كثيرة لم يقلها الأسياد.

- ألهذا السبب استأصل الجدّ كل هذا العدد من الألسن؟

- إذا لم تتعلمي قول ما يجب أن يُقال فأخشى أَنَّ يوماً سيأتي تجدين فيه فمك خالياً من اللسان أيضاً.

- وهل أنا أفضل من أبي المسكين الذي كان أول الضحايا؟!

- أنصحك ألاّ تعودي لترديد أقوال الكبار أبداً. الصغار ينبغي أن لا يصغوا لأقوال الكبار عندما يخاطبون الكبار.

- لم أعد صغيرة منذ زمن طويل.

- أعرف أن شموس الصحراء قد نفخت في جسمك ونهديك وردفيك، ولكن اعلمي أن عقلك ما زال صغيراً.

- ليس صغيراً إلى الحدّ الذي لا يفرّق فيه بين القتل وبين الحبّ.

- ماذا تعرفين، يا شقيّة، عن الحبّ؟ ماذا تعرفين عن القتل؟ هيّا، خبّريني الآن!

- أعرف. أعرف الشيء الكثير. ولكن ذلك سرّي!

- سرّك؟

- هل تبخلين عليّ بامتلاك سرّي أيضاً؟

- عجب!

- لا عجب في الصحراء. العجب في أن نتعجّب.

- عجب! إني أسمع العجب تلو العجب!

49

التبدّل المفاجىء جاء دليلاً آخر على غرابة الأطوار.

توقفت عن ارتياد خباء الحجاب زمناً طويلاً، وكلّما فاتحتها في الأمر، وأسمعتها اللوم في فعل ما لا يليق، استشرست، وكشّرت عن أسنانها، كما تفعل الذئبة إذا هوجمت في وجارٍ يخفي جراءً، وردّدت بأنها أعرف الناس بالفعل الذي يليق والفعل الذي لا يليق. ولكن بعد مضي أعوام بدأت تغيب عن البيت حتى بعد منتصف الليل. تكرّر الغياب المريب فاستفسرت منها بسؤال. قالت إنها تقضي الليل مع صبايا القبيلة احتفاءً بتحوّل القمر بدراً. شحب البدر وتحوّل مرّة أخرى هلالاً بائساً،

ولكن الغياب المريب استمرّ فسَاءَلتها. لم تجب. تجاهلت أسئلتها فألحّت وهدّدتها بالحبس في قيود المسَد. سخرت منها بوقاحة لم تعرفها أم في بنت من بنات الصحراء يوماً. لم تدرِ حتى ذلك الوقت أن القدر هو الذي يكشف للناس سرّ الأشياء المشبوهة عندما يحين الوقت. فقد اعتادت ألاّ تذهب لزيارة خباء الحجاب إلاّ تلبية لاستدعاء صاحب الحجاب، ولكنها اضطرّت للذهاب في إحدى الليالي لمشاورته في أمر عاجل. دخلت الخباء، واستأذنت لولوج الحجاب. في تلك الغمضة لحظت شبحاً يمرق خارجاً من جهة الحجاب الأخرى، وسمعت حفيف الثياب الفضفاضة وهي تتجرجر على الأرض. قال لها إنها أمَة من الإماء، ولكنّها لم تصدّق. لم تصدّق لا بسبب يقين، وإنما بدافع إحساسٍ غامض أقوى من اليقين.

بعدها راقبت الخباء فرأت الفتاة تلج الخباء كل ليلة، ولا تخرج منه إلا بعد منتصف الليل.

أرادت أن تستفزّها مرّة فقالت لها:

ـ لم تخبريني أنّك عدتِ لزيارة الجدّ.

لم ترد. كانت ترتق ثوباً مكوّماً في حجرها. تتبسّم بغموض، صامتةً.

قالت الأم:

ـ لم تصالحي الجدّ فقط، ولكنّك استمرأتِ المقام في خبائه.

لم تجب. استمرّت تتبسّم بالغموض نفسه، تنحني على الثوب، وتتشبّث بالصمت.

مضت في الاستفزاز خطوة أخرى:

ـ لم أظن يوماً أن العداء يمكن أن ينقلب ودّاً.

رفعت رأسها عن الثوب. اتسعت بسمة الغموض على شفتيها. كبرت سيماء المكر في عينيها. قالت بخبث الأنثى، ووعيد أهل الكيد:

ـ لِمَ تستغربين؟ أليس الخباء خباء جدّي؟ ألم تلوميني في يومٍ خاصمتُ فيه الجدّ؟ أم أن الجدّ ليس لي جَدّاً؟

أعقبت العبارة بضحكة مكتومة، لئيمة.

50

تنقّلت الأنواء في بروج الخفاء، ونزلت أفلاك السعود منازل النحوس واحتلّت كواكب النحوس بيوت السعود، فسرى في الأجرام تبدّل، ووقع في سبل الأشياء تحوّل، وفاضت نواميس السماء بأقدار أُخر، فجرى في الصحراء أمر؛ عبس الزمان هنا، وتبسّم لخلقٍ هناك. حلّ جدب هنا، وجرفت السيول خلقاً هناك. انقلب الأمر الذي ظنّه الناس ضرراً إلى نفع جزيل،

وانهار الأمر الذي حسبوه خيراً لينقلب إلى الضدّ. كان العرّافون يراقبون أفعال الخفاء في الظلال التي تدب على أرض الصحراء ويبتسمون. يبتسمون سرّاً حتى عندما يلتئمون في مجالس الأكابر ليجاوروا زعماء القبائل، ولكنهم لا يقولون النبوءة الحقيقية أبداً حتى لا يستدرجهم اللسان اللئيم لإفشاء السرّ. هجع الزعيم فركنت القبيلة إلى جوار ضريح الزعيم. ركنت القبيلة وأمنت أرضاً لم يأمن عابرٌ جانبَها يوماً. ركنت لا استجابةً لنبوءة العذراء، ولكن رضوخاً لمشيئة الخفاء. وكان العرّاف الإنسان الوحيد الذي عرف ذلك. لأن ذلك حدث في زمن سبق رهانه الخاسر لامتلاك قلب العذراء.

هي أيضاً نالت من الفيض نصيباً. وأصابها في القلب تبدّل.

في الزمن الأول اشمأزّت منه فأنكرته.

اشمأزّت من عشقه للظلمات، وكراهيته الغريبة لضوء النهار.

اشمأزّت من لفافات السواد، ومن ستوره التي يلتف بها داخل الستور.

اشمأزّت من السِّيَر المخيفة التي تتناقلها القبيلة عن مسلكه وعن غرابة أطواره.

اشمأزّت من رائحة عرقه، ومن عشبته الخفيّة التي قيل لها إنها علّة خلوده.

اشمأزّت من الروايات التي تتحدّث عن غرامه بالأم، وعلاقته بامرأة لم يجزها له الناموس.

اشمأزّت من جرمه الهزيل، ومن خلوده نفسه، لأنها لم تتخيّل أن يتشبّث إنسان بالحياة في الظلام كل هذا الزمان.

اشمأزّت واشمأزّت فأنكرته برغم استنكار الأمّ.

ولكنها لم تعرف يومها أن الضدّ ينقلب إلى الضدّ بتدفّق الأيام. وما كان سبباً للاشمئزاز يوماً صار علّةً للفضول في يوم آخر. ذلك أن ساهور الغُموض الذي أحاطه به العبيد والإماء والرعاة وبقية القبيلة أيقظ فيها فضولاً لم تعرفه قبل أن تعرف الأنوثة. والفضول شرك. الفضول فخّ كلّ أنثى. الأنثى لا تعشق رجلاً لا يخفي سرّاً. الأنثى لا تمشي وراء رجل لا يثير فضولاً. ويوم اندفعت إلى خبائه لتكشف الستور، كانت قد ضبطت في نفسها العلامة، فقالت لنفسها ها أنا ذا أصير أنثى ككل الإناث. أنا منذ اليوم امرأة ككلّ النساء.

دخلت الخباء.

اجتازت الخباء إلى الخباء الثاني.

دخلت الحجاب. رقدت بجواره على الحَرَم، فانكشف لها أول سرّ يمكن لامرأة أن تعرفه إذا رقدت إلى جوار الرجل.

51

ولكن الرجل تمادى.

الرجل تمادى لأنه لم يكن رجلاً كبقيةِ الرجال، ولكنه جنّ من مملكة الجان. يبتلع حفنة من عشبته المريبة، يترنم ببعض الأشعار التي يؤكد أنه يقولها من وحي الساعة، ثم ينقض عليها ولا يتركها حتى السَّحَر.

احتملت طويلاً. ثم توقفت عن زيارة الخباء.

أرسل في طلبها عبيداً فلم تذهب. انتظرها زمناً قصيراً، ثم لجأ إلى الابتزاز. بعث لها بوصيّة تقول إنه سيفشي أمرها في كلّ القبيلة إذا لم تمتثل.

أقبلت عليه غضْباً.

قاسمته الحرم زمناً، ثم سألته يوماً:

- هل ترى لهذه السيرة نهاية؟

أجاب ببرود الخالدين:

- لا نهاية للسيرة. لا أرى نهاية لأي سيرة.

- ولكني لن أحتملك إلى الأبد. الناموس يحذّر من السير في هذا الطريق.

عقّب باستخفاف:

- الناموس؟
- أنا أخاف الناموس!
- ما أكذب الأنثى!
- ألا يجب أن نخاف الناموس جميعاً؟
- من الذي أجبرك على أن تدخلي حجابي أول يوم؟
- دخلته.. دخلته بدافع الفضول!
- الفضول؟
- الفضول. المرأة، يا مولاي، فضول!

أطلق ضحكة كريهة. قال بصوت غريب:

- دخول الحجاب ليس كالخروج منه، فاحترسي!

بكت في الظلمة، بصمت، في تلك الليلة.

52

انتقلت القبيلة إلى البنيان، وأقام الطلقاء في حبوس الجدران وأنصاب الحيطان.

ابتنوا الديار أيضاً وعاشوا متجاورين في أحد أزقة «واو».

أمر ببناء عرش طيني في قلب النزل الجديد، وأخفاه بالفرش والجلود. حول الحرم أمر بنصب الحجاب، وأثنى على دُور الجدران لأنها أشدّ منعاً لتسرّب أضواء الشمس. ولكنه رفض أن يتنازل عن ستور الداخل برغم طغيان الظلام. اللثام أشاعوا أنه لم يقم ضريح الطين إلاّ ليخفي عظام الحكيم القديم. أعاد معها السيرة القديمة حتى كادت تيأس، وبلغ بها الأمر ذلك الحدّ الذي لا يبالي فيه الإنسان بالنتائج. قدح في رأسها شرر، وألقى اليأس في قلبها بفيض النبوءة. قالت له بتصميم لم يعرفه في أنثى:

- قررت أن نفترق..

قاطعها بعبارة قاطعة:

- مستحيل!
- لن تراني بعد اليوم.
- سوف نرى!
- إذا أجبرتني فسوف أفشي سرّك. سأخبر الناس بكل شيء!
- هيء هيء.. لن يصدقك أحد!
- سيصدّقونني. سأعرف كيف أجعلهم يصدّقون المنكر.
- تتعبين نفسك كثيراً يا شقيتي الصغيرة. أنت شقيّة!
- الأفضل أن نفترق بالتي هي أحسن.

- لن نفترق إلى الأبد. هيء هيء..
- سوف ترى.
- سوف أرى!

في اليوم التالي خرجت إلى ضريح العرّافة.

53

بعد أن أعادوها بالقوّة دخلت الدار، وقفزت داخل الخباء.

قال لها:

- قلت لك إنهم لن يصدّقوكِ، ولكنّك عاندتِ ووضعتِ في عنقكِ عاراً!
- كان ذلك عارك وليس عاري.
- شقيتي الصغيرة. شقيتي المسكينة. كان يجب أن تدركي منذ زمن بعيد أن الإنسان لا يعيش إلى الأبد بلا سرّ.
- حقّاً؟
- الشكّ في ذلك جرم.

تمدّدت إلى الجوار. تسللت بيدها خلسةً وانتزعت المدية المعلّقة في الركيزة. قالت:

- ألست أنت، يا مولاي، من قال يوماً إن الإنسان لا يقتل إلاّ الإنسان الذي يحبّ؟

حررت المدية من الغمد خفية. سمعته يجيب:

ـ آه. آه. لم أكن أنا من قال ذلك، ولكنه حكيم الأجيال الذي فقدته يوماً.

بدأت تنزع ثوبها، قالت:

ـ الحكيم الذي قتلته يوماً؟

مدّ يده إلى جيب الجلباب. استخرج صرّة الجلد. تناول من المسحوق حفنة. ألقى بها في فمه. بدأ يلوك المسحوق اليابس. ردّد بانتشاء أهل الغناء:

ـ ما ألذّ هذا العقار! ما أنبل هذا العشبَ!

تحررت من ثيابها، مدّت يدها لتجرّده من ثيابه. ساءلت:

ـ أنت لم تجبني عن سؤالي!

لم يجبها. ردّد أغنيته عن العقار مرّة أخرى:

ـ ما ألذّ العقار، ما أنبل عشبك أيها الليل. تُرى كيف كانت ستبدو الحياة في هذه الصحراء لو خلت وديانها من عشب الليل؟

احتواها بين ذراعيه. كان ما زال يغمغم بأقوالٍ ليست أشعاراً، وليست تمائم، وليست جواباً عن سؤال. قالت:

ـ هل ظننت، يا مولاي، أن ثمة ما يمكن أن يُخفى في هذه الصحراء؟

أطلق صوتاً كحشرجة شاة تذبح. تحسست المقبض، أمسكت بالمقبض. قالت:

ـ هل ظننت أن نزع ألسنة العبيد يمكن أن يفيد في إخفاء السرّ؟

لم يجب. كان يخور ويحشرج ويغمغم باللفظ المبهم.

تسلّلت بالمدية إلى الجسد. إلى الجرم المحموم الذي يعلو ويهبط ويئن. رشقت المقبض أسفل سرّتها فغاص النصل في اندفاعة الجسد العلوي إلى أسفل. غاص نصل السحرة في بطن الجسد الراجف، فتراجع السنّ السرّي المثبّت في رأس النصل. تراجع إلى أسفل، فدفع نصلاً سرياً آخر إلى الجهة المضادّة، فتسلّل اللسان المميت من شقّ في الغمد. شقّ تافه لا يَكاد يُرى. منه انبثق نصل في سُمك الشعرة، اخترق اللسان الجلدة اللميسة، وغاص في لحم ليّن، في طراوة الزّبد. انسلّ إلى الأمام. غرق في كتلة الزبد. غاص بيسر، ومضى يغوص حتى توارى. توارى حتى اعترضه برزخ المقبض، فتفصّد دم شحيح في البدء، ولكن استمرار الدبيب المحموم، مع ظمأ الجرم إلى الجرم، اشتدّ النزيف، ونزّ سخيّاً، فيما بعد، نزّ لزجاً أيضاً، نزّ

خفياً. مضى يتلاحق في خيوط صغيرة لها عناد الينابيع في جبال الشمال، يلعق لسان الجنون، ويلعق منه اللسان الظامىء. فاض. فاض على اللحم البكر، وسال ليمتزج بقرين جاد به اللسان العلوي، اللسان المندفع في البدن اليابس كقطعة حطب، الهزيل كقضب شتوي، الموسوم بغضون غامضة كأنها تمائم السحر، ولكنه لا يهدأ، ولا يعترف بزمانٍ ولا بغضون، لا يأبه ليبوسة ولا لإعياء، يحترف الحمّى، ويتغسّل بسلسبيل الجنون، ويتشبّث بالجرم السفلي البتول.

امتزج الدم بالدم، وتلاحم الجرم بالجرم بسلطان النصلين الشرهين. فاض المزيج الغامض إلىٰ أسفل كعادة كل سائل. غمر مفارش الحرم الجلدية، الموسومة بتعاويذ الأقدمين، وتدفق باسترخاء، بتكاسلٍ غامض، ليروي حضيض الضريح حيث استقرّت عظام الحكيم القديم.

زولوتورن ـ تون (سويسرا)
إبريل ـ مايو 1997م